القيم التعبيرية والفنية
في
القصيدة " الرصافية "
للشاعر "علي بن الجهم"

بحث للدكتور

عبد اللّه محمود أبو شعيشع عمر

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفرالشيخ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بآلائه ونعمائه وصلاة وسلاماً على أشرف خلقه، وسيد رسله محمد (ﷺ) الذي من حبه نستمد حب العربية، ومن معين فصاحته وبلاغتة نستلهم أسرارها وجمالها، ونتذوق شعرها ونثرها، عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأتم التسليم... وبعد.

فإنه من المتعارف عليه عند الأدباء والنقاد أن الشعر الذي يستحق الإطراء، ويستوجب الثناء، هو الشعر الذي يحرك المشاعر، ويلهب الأحاسيس، ويفتق الخيال، ويوقظ الأفئدة، وتشرئب إليه النفوس تشوقاً وتشوفاً.

وهذا الذي ذكرت هو الذي دفع الأصمعي أن يقول عن مرثية "محمد بن كعب الغنوى" "ليس مثلها في الدنيا، وليس صاحبها من الفحول إلا في هذه المرثية [١]

وهو نفسه الذي أحدث في نفس جبلة بن الأهيم هِزَّة ارتياح ونشوة طرب عندما سمع قول "حسان بن ثابت" مادحاً الغساسنة في قصيدته التي منها قوله:

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

فقال على إثر سماعها " هذا والله هو الشعر، هذا ولعمري هو الشعر، هذه البتارة التي بترت المدائح "

وليست البتارة وحدها التي نالت الإعجاب واستولت على المشاعر، فشعرنا العربي زاخر بالفرائد التي تشده العيون – وتستولي على مكامن القلوب من مثل "المنتقيات والمذهبات، والمشوبات، والملحمات والمجمهرات

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب د/ إحسان عباس ص ٥٢ طبعة دار الثقافة – بيروت لبنان – الطبعة الرابعة

والمعلقات... وغيرها من القصائد التي تعلقت بها الأذهان والأفهام، وتحدثت بها الركبان والأوطان من مثل القصيدة (الرصافية) للشاعر العباسى "علي بن الجهم" تلك القصيدة – التي هي محل البحث والدراسة – والتي طالما قرأتها وأنا في مرحلة الدراسة الجامعية مراراً وتكراراً أراجعها وأتأملها حتى استمالتني ألفاظها وسبتنى معانيها ودقة مراميها، وعذوبة كلماتها، وجمال حوارها، ولين عريكتها، وحسن طلعتها، وروعة تنقلها، وبديع تفننها، وحذق شاعرها، وبراعة قائلها وصانعها، وكان كلما وقع عليها بصري أتفرسها بعين الناقد، وأتلمسها بذوق الدارس، ويسرى في نفسي رجاء أن تسعد أوقاتي بإلقاء الضوء على هذه "الرصافية" وإبراز قيمتها التعبيرية، وكشف فرائدها الفنية وجوانبها الجمالية، وشاءت إرادة الحق وملهم العربية، وهداني إلى دراسة هذه الفريدة، ونقد هذه الخريدة في بحث أعددته، بعد أن مكثت وقتاً ليس بالقصير أتأمل أبياتها، وأستوعب أبعادها، وأحوم حول حماها، لعلى أصل إلى مفاتيح أسرارها لأفض مغاليق خزائنها وأجنى درر أصدافها وأقطف قطوف أردانها وعبيرها. ولقد أصبح – بفضل الله ومشيئته – هذا الرجاء محققاً، وذاك الحلم واقعاً، ودرست "الرصافية"، وبينت قيمتها التعبيرية في تضاعيف هذا البحث الذي اقتضت طبيعته أن يكون من: **(مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وفهرس للمراجع والمصادر وآخر للموضوعات)**، متكئا– في دراستي هذه – "على المنهج التكاملي" الذي يضم في غلالته الفضفاضة المناهج الأخرى ؛ ولعل في تعددها ما يشهد بأن الاعتماد على منهج واحد لا يكفي، ولا يغني البحوث الأدبية ولا يثريها، ومن ثم فإن دراسي الأدب ينبغي علية أن يهتدي في بحوثه بكل المناهج الأدبية، إذ الاعتماد على منهج بعينه لا ينهض بدراسته على الوجه الذي يرتضيه. كما يرى المرحوم الدكتور/ شوقى ضيف. (١)

أولاً : **المقدمة** وفيها – بعد الحمد والثناء على الله ورسوله – أو جزت منهج البحث وخطته التي قام عليها.

(١) يراجع في تفصيل هذا : البحث الأدبي طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره د/ شوقى ضيف ص ١٤٤، ١٤٥ طبعة دار المعارف – الطبعة الخامسة

ثانياً : التمهيد وقد خصصته – في إيجاز وتركيز – لإلقاء الضوء على صاحب "الرصافية " "علي بن الجهم "من حيث: (التعريف به – مولده وأسرته – أدبه ونبوغه – شعره – وفاته)

ثالثاً : الفصل الأول عنوانه :

"القيم التعبيرية والفنية في الجانب الغزلي من القصيدة الرصافية "

رابعاً : الفصل الثاني وعنوانه :

"القيم التعبيرية والفنية في حسن التخلص وروعة التسلل من الغزل إلى المدح في القصيدة الرصافية "

خامساً : الفصل الثالث وجاء عنوانه:

" القيم التعبيرية والفنية في مدح المتوكل من القصيدة الرصافية "

سادساً : الخاتمة وفيها سجلت أهم النتائج التي توصلتْ إليها هذه الدراسة.

سابعاً : فهرس المصادر والمراجع التي استقتْ منها الدراسة مادتها.

ثامناً : فهرس الموضوعات

وبعد : فهذا بحثي وثمرة جهدي أضعه – في تواضع – بين يدي أساتذتي، لأنال شرف التعلم، وأنهل من بحر التوجيهات...وكلي رجاء أن ينال رضا شيوخى، جهابذة العلم ونقاد الأدب، وكواكب المعرفة وشموس الهدى:

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا[1]

فإن كنت قد وفقت، فتوفيقي بالله ومن الله، ثم بفضل تعلمي وتأدبي على يد ثلة من أعلام جامعة الأزهر التي أنتمي إليها، وأشرف بالعمل فيها.

وإن كانت الأخرى، فحسبي أنني اجتهدت، وبذلت الجهد والوقت، وعزمت على الكد والجد.

وعلى أن أسعى وليس على إدراك المراد

(١) البيت لمروان بن أبى حفصة وهو في العمدة ج٢ ص ٥٩ بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – طبعة دار الجيل ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس (١٠)

الباحث

التمهيد

ملامح من حياة صاحب "الرصافية" "علي بن الجهم"

التمهيد

ملامح من حياة صاحب "الرصافية" "علي بن الجهم"

أولاً : التعريف به:

هو علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كرَّاز بن كعب بن مالك بن عيينة بن جابر بن عبد الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن الحارث بن سامة بن لؤى بن غالب.

هكذا يدعون، وقريش تدفعهم عن النسب، وتسميهم " بني ناجية"، ينسبون إلى أمهم ناجية. (١)

وذلك لأن سامة خرج مع أمرأته ناحية من مكة إلى ناحية البحرين، وأولاده منها هناك، و"على ابن الجهم" يفخر بنسبه هذا في عدة مواضع من شعره. (٢)

ثانياً : مولده وأسرته:

لم يعين أحد ممن ترجم لعلي بن الجهم سنة مولده، ولكن البعض ومنهم محقق ديوانه (خليل مردم بك) قَدَّر أنه ولد سنة ١٨٨ هـ أو قبلها بيسير، وذلك لأن المتوكل لما غضب عليه في سنة ٢٣٨ هـ كان عمره يناهز الخمسين ؛ فلا نكون بعيدين عن الصواب في تقدير سنة مولده هذه (٣)

وأسرة "علي بن الجهم" من علية القوم، فقد وَلَّى "المأمون" أباه "الجهم" بريد اليمن وحرازها، وولاه الثغر، كما ولاه "الواثق" الشرطة في بغداد، وكان أخوه الأكبر "محمد بن الجهم" عالماً وأديباً، يذكره " الجاحظ" كثيراً في كتبه ويروي

(١) ينظر في هذا : الأغاني لأبي الفرج الأصفهانى ج١٠ ص ٢٤٧ شرحه وكتب هوا مشه الأستاذ/ عبد على مهنا – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٢) ديوان على بن الجهم ص ٥ – تحقيق مراد مردم بك – طبعة دار صادر – الطبعة الثالثة ٢٠١٠م

(٣) ديوان على بن الجهم ص ٧

عنه، ويستشهد بكلامه وله أخ آخر اسمه "عبد الله" لم تذكر أخباره، وكان عمه "إدريس" من الوجهاء، فقد رثاه "أبوتمام الطائى" في شعره. (١)

ثالثاً : أدبه ونبوغه.

نشأ "علي بن الجهم" في أخريات القرن الثاني وفجر القرن الثالث ببغداد، وبغداد في ذلك الزمن حاضرة الدنيا علماً وأدباً وحضارة، وربي في بيت علم وفضل، وكان أخوه محمد . كما سبق . من أنداد الجاحظ، جامعاً بين ثقافتى العرب واليونان، معدوداً من فلاسفة المتكلمين وأهل الجدل..... وفي هذه البيئة الزاخرة بالعلم والأدب نشأ " علي بن الجهم" وصحب الكتب، وأحب مطالعتها، وأنس بمسامرتها، ومن يطالع شعره يجده يذكر العلم ويمتدح به، ويذم الجهل بأساليب مختلفة من ذلك قوله:

إذا لم يشب رأس على الجهل لم يكن على المرء عار أن يشيب ويهرما (٢)

وهذا يدل على نبوغه وذكائه، وتفرده منذ صغره، وحبه للعلم والمعرفة والأدب والثقافة بجميع فروعها، الأمر الذي جعله ينبغ في الشعر صغيراً.

يروى عنه صاحب الأغاني قوله: "حبسني أبي في الكتاب، فكتبت إلى أمي :

يا أمتا أفديك من أم أشكو إليك فظاظة الجهم
قد سرح الصبيان كلهم وبقيت محصوراً بلا جُرمِ

قال على : وهو أول شعر قلته، وبعثت به إلى أمي، فأرسلت إلى أبى قائلة : "والله لئن لم تطلقه لأخرجن حاسرة حتى أطلقه. (٣)

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٦، ٧
(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢١، ٢٢
(٣) الأغانى ح ١٠ ص ٢٦٢

وشاهد هذه القصة ينم عن تفتح موهبة الشعر وأكمام القريض في نفس "ابن الجهم" منذ زمن مبكر، "فإنه لم يكد ينهي دروسه في الكتاب، حتى كان قد أصبح شاعراً ينظم الشعر في يسر وسهولة...، ولم يكد يتجاوز العشرين ربيعاً، حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له في الصعود، وإذا هو يصبح مداح المعتصم، ثم يفد من بعد على الواثق يمدحه أيضاً، تم تقبل الدنيا على "ابن الجهم" مع خلافة المتوكل ٢٣٢ هجرية، إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه، فيتخذه جليساً ونديماً، ويغدق عليه أمواله وجوائز "[١]

رابعاً : شعره:

لعل من يَطَّلع على ديوان "ابن الجهم" ومافيه من موضوعات متنوعة، وما يكتنفها من جزالة في اللفظ وقوة في المعنى ولطف في الصياغة ودقة في التعبير وبراعة في التصوير والإبداع، يدرك عن يقين أن الرجل كان شاعراً مطبوعاً، "وأظهر خصائص شعره الطبع والجزالة وتأدية المعنى على أوضح السبل وأيسرها، يقل في شعره التقديم والتأخير والحذف والتقدير، وما يقتضى إدامة النظر، وإعمال الفكر، كما أنه بصير بحدود الكلام [٢]."

أما عن موضوعات شعره، فأشعاره موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة، وجل مدائحه في "المتوكل"، فقد كان لا يترك فية فضلاً لغيره. ([٣]) وخُصَّ به حتى صار من جلسائه[٤].

خامساً : وفاته:

(١) تاريخ الأدب العربي " العصر العباسي " د/شوقى ضيف ص ٢٥٦، ٢٥٧– الطبعة الثانية عشرة – دار المعارف

(٢) ديوان على بن الجهم ص ٣٢ ، وينظر في تفصيل ذلك ص ٣٤، ٣٥من الديوان.

(٣) تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي" "د/شوقي ضيف ص ٢٦٣

(٤) الأغانى ح ١٠ ص ٢٥٠

يقول صاحب الأغاني : "خرج علي بن الجهم في قافلة إلى بلاد الشام، قاصداً مع جمع من أصحابه غزو بلاد الروم فتلاحقوا نحو الثغر عام ٢٤٩هـ، فلما كانوا في "خساف " وهى "برية بين بالس وحلب بأرض الشام" " خرج عليهم نفر من الأعراب الكلبيين، فهرب من كان في القافلة من المقاتلة وثبت " علي بن الجهم "فقاتلهم قتالاً شديداً فلماً كان من غد خرج على القافلة منهم خلق كثير فتسرعت إليهم المقاتلة، وخرج علي فيهم فأصابته طعنة قتلته، فاحتمله أصحابه وهو ينزف دمه، فلما أحسَّ بالموت جعل يقول:

أزيد في الليل ليل أم سال بالصبح سيل
يا إخوتى بدجيل وأين منى دجيل

فأبكى كل من كان في القافلة، ومات مع السحر شهيداً دون غايته، وقد رثاه جماعة من الشعراء بعد مقتله.(١)

(١) يراجع في خبر مقتله:
= الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى ج ١٠ ص ٢٧٩
= ديوان على بن الجهم ص ١٩ ، ٢٠
= مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ١٠٨
= تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي " د/ شوقى ضيف ص ٢٦٣

الفصل الأول:
القيم التعبيرية والفنية في الجانب الغزلي من القصيدة " الرصافية "

الفصل الأول:
القيم التعبيرية والفنية في الجانب الغزلي من القصيدة " الرصافية "

يقول الشاعر "علي بن الجهم" في مقدمة الرصافية:

عيون المهابين الرصافة فالجسر [١]: جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدري [٢] وهذا البيت يعد مفتاحاً للرصافية، ومعبراً عنها وشارحاً لمضمونها ورقيق معانيها، ولطيف تعبيراتها، وروعة تصويراتها، وهو الذي لما سمعه الخليفة " المتوكل " قال:

كاد ابن الجهم أن يذوب رقة ولطافة "، وذلك في الخبر الذي ذكره محي الدين بن عربي في محاضرة الأبرار قال: " حكي لنا بعض الأدباء عن "ابن الجهم"، وكان بدوياً جافياً لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التي يقول فيها يخاطب الخليفة:

أنت كالكلب في حفاظك للود ... د وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا عدمناك دلواً ... من كبار الدَّلا كثير الذنوب

---

(١) الرصافة " بضم أوله من الرصف ، وهو ضم الشيء إلى الشيء كما يرصف البناء ، والرصافة تطلق على مدن كثيرة ، والمقصود بها هنا " رصافة بغداد " بالجانب الشرقي ، بناها المهدي بأمر من أبيه "المنصور" ، وبنى فيها دوراً ، وجعلها معسكراً له ، فالتحق به الناس وعمروها ، فصارت بمقدار مدينة المنصور ، وكان فيها مقابر جماعة الخلفاء من بني العباس بعمارة هائلة عليها هيبة وجلال ، وعليها وقوف وخدم مرتبون للنظر في مصالحها ، وقد فرغ المهدي من بنائها عام ١٥٩ هـ " ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٣ ص٥٣ (رصافة) تحقيق فريد عبد العزيز الجندي – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى سنة ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٣.

فعرف المتوكل قوته، ورقة مقصده، وخشونة لفظه، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به ؛ لعدم المخالطة، وملازمة البادية، فأمر بدار حسنة على شاطئ دجلة، فيها بستان حسن، يتخلله نسيم لطيف، يغذى الأرواح، والجسر قريب منه، وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به، وكان يركب في أكثر الأوقات، فيخرج إلي محلات بغداد، فيرى حركة الناس، ولطافة الحضر، ويرجع إلي بيته، فأقام ستة أشهر على ذلك والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته،فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشده، فحضر وأنشد:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكل: "لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة "[1]

وحري بالخليفة العربي المتذوق للشعر المتفحص دقيق معانيه أن يقول ذلك ؛ لأن "ابن الجهم" الذي رمي . قبل أن يتعهده الخليفة بالرعاية والإقامة في ربوع الرصافة . بأنه بدوى جاف لا يعرف من التشبيهات إلا ما مدح به الخليفة في إلحاقه بالكلب في حفاظ الود، والتيس فى القوة وقراع الأهوال والخطوب، والدلو في فيض الإغداق، وكثره العطاء، هو نفسه الذي ذاب رقة ولطفاً و لطافة ؛ ذلك لأنه صَدّر " الرصافية " بأجمل ما تلحق به عيون المرأة، وأتم وأكمل ما به تشبه الألحاظ الغامزة والمقل الواسعة، والمحاجر والأحداق التي تسبى العقول وتجلب الهوى، وتشده النفوس " عيون المها "، لأنها أعنى " عين المها " وهي عين البقرة الوحشية التي لم يجد العرب أتم في الوصف، ولا أجمل في الشبه، ولا أحسن في العين، ولا أكمل في الحسن والصفاء و السعة، والسحر الآسر من هذه العين ؛ ليصوغ منها استعارته الرائعة، الدالة علي كمال الرونق فيمن قصدهن فشدهنه من أصحاب الدلال والجمال اللائي لُحن لعينه، وظهرن في غنج ودل ورقة، وكأنهن قطيع الظباء، أو جمع من إناث المها، يسبين القلب، ويأسرن الفؤاد، ويسعدن العيون، ويجلبن الهوى والغرام.

(١) ديوان علي بن الجهم ص ١٣٥ ، ١٣٦ هامش (١).

ومما زاد من كمالهن وجمالهن وأبرز حسنهن، وبهاءهن أنهن ظهرن له، ولاح محياهن بين " الرصافة والجسر " تلك الأماكن الجميلة التي تسر الناظرين، فالرصافة في رقة هوائها ونظافة أرضها وصفاء سمائها، وعليل نسيمها، إضافة إلي جسرها المضروب في طرقاتها، يمسن عليه ربات الحجال، ويدرجن علي طرقه المعبدة في خطوات كأنها وقع الألحان، أو معازف الركبان، ولا شك أن تعانق المكان بسحره ووصفه مع هذه الألحاظ الجميلة والمقل النجلاء، كل هذا أضفي علي الصورة بهاء، وزادها إشراقاً وتألقاً وألقاً.

وكأن "ابن الجهم" قصد إلي هذا القيد " بين الرصافة والجسر" ليكثف مزيداً من الضوء إلى خصوصية هذه المقل الساحرة وهي تقتل في تلك الأماكن الغردة في دل ودلال، تصيب بألحاظها كل من تقابل، وتسبى وتصيد بشباكها من يقع في شراكها، أو يرمى بسهام غرامها.

ولقد جمع كل هذه المعاني المحتشدة، وما تفعله هذه العيون الغامزة وأثرها الواضح على من يرمى من كنانة سحرها هذا الأسلوبُ الرقراق في الشطر الثاني من البيت مصدراً بالجملة الفعلية: " جلبن الهوى "، وكأن العيون عند الشاعر مصائد غرام تجلب من يمر بساحتها، أو يميل إلي حماها، أو يركن إلي هواها، وكفى بهن صائدات ماهرات.

وزاد من رقة الأسلوب ودقته " هاتان الجملتان الحائرتان " ـ إن صح التعبير . " "من حيث أدرى ولا أدرى "، وهو بهذه " الدراية " يضفى على هذا المعنى مائية وشاعرية، ربما لم تكن لتتأتى إن هو نحي عن نفسه هذه الحيرة والوله المشدوه بهذا الجمال الآسر، والهوى المجلوب، ولو أقصاها عن ساحة البيت لكان أقرب إلى التقريرية المحدودة، ولكن "ابن الجهم" ـ وكما قيل عنه . رشيق الفهم ذلق اللسان، جميل الوجه، حسن البيان [1]، أبى إلا أن يوله بالجمال، ويحار بالدلال، وهذه من صفات النفوس السليمة، فقديماً قالواً: " من لم

(١) ديوان علي بن الجهم ص ١٣٥.

يزلزله الجمال فناقص تكوينه ؛ لأن التكوين الأساسي هو في الإحساس بالجمال(١)".

وطالما أن هذا من طبيعة تكوين "ابن الجهم" ؛ فإن النظرة تأسره، والبسمة تملكه، والإلتفاته تسبيه، وفتور الألحاظ يسعده ويشقيه، ويعيد إليه شوقاً قديماً قد سترته الأيام، وما أذهبت حرارته ووجده الغير والأعوام.

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمراً على جمر (٢)

وكأن الشاعر أراد أن ينفى عن نفسه تهمة كَرِهَ أن تحل بساحته، ربما لحقته من قوله: " أعدن لي الشوق القديم..."، تلك التي فهمت من دلالة الفعل الذي انقضي في الماضي " أعدن لي الشوق..."، ثم من دلالة وصف الشوق بالقدم، ليردفها في سرعة واستدراك لطيف يوضح مدى تعلق " ابن الجهم" بآيات الجمال الأنثوي، فما ألطفه وأدقه في احترازه الرائع فى قوله: " ولم أكن سلوت ؛ ليدل على أن جمرة عاطفته متقدة، ونارشوقه مشبوبة، ووجدان هواه يقظ متأهل، يستقبل سهام العذارى، فيزيد ناره اشتعالاً، وجمرات وجده تأججاً وتوقداً ؛ بيد أن الشاعر يسعد بهذا السعير الذي شب في قلبه بعد غفوة طالت، واتقدت جمراته وزادت أضعاف ما كانت عليه في القديم.

وبعد أن أنس "ابن الجهم" إليهن واطمأن إلى هواه الذي أعدنه الغانيات إليه، أخذ في بيان ما يترتب على هذا الهوى المشبوب فقال:

سلمن وأسلمن القلوب كأنما تشك بأطراف المثقفة السّمر (٣)

(١) ديوان الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٣٦ ، جمع ودراسة د/ صابر عبد الدايم – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م – الطبعة الأولى.
(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٣.
(٣) السابق و الصفحة.

وهذا بيان يشير إلى مدى استعداد "ابن الجهم" إلى استقبال الهوى، واستسلام القلب له، وحرصه على سلامة مَنْ هن سبب سعادته، والباعثات عليها، ومن ثم فقد دعا الشاعر لهن بالسلامة والنجاة في جملة رقيقة عفوية خرجت من نفس تتعشق الغواني، وما أجملها من كلمة، من جمل موجزة معبرة في مستهل كل بيت " أعدن . سلمن . قلن " وما أعذب هاتين الجملتين المتعانقتين المتتاليتين في تناغم ومائية " سلمن، واسلمن " مع افتراق معنيهما، فالأولى من السلامة وهى دعاء لربات الهوى وملكات القلوب، وأما الثانية فهي من الاستسلام والانقياد لدقات القلوب التي أسعدها الهوى، وآنسها الشوق، وأثرت فيها سهام " المها " حتى كأنها تشك بأطراف المثقفة السمر ؛ دلالة على و خز الحب، وإيلام الجوى، وتعب البعاد، ونار السهاد، وذلك كله قد احتشد في كلمة " تُشكّ " وما يكتنفها من جرس ونطق وخصوصية لأحرفها التي جسدت ما أراد الشاعر أن يوصله إلينا ويزفه لمشاعرنا من إيلام ووخز أصاب فؤاده، وآلم قلبه.

يضاف إلى ذلك بناؤها للمجهول " تُشكّ " ونائب فاعلها ضمير الغائبة " هي " يعود على القلوب، مع معرفة فاعل الشك حقيقة وهى " عيون المها " المستعارة للحسناوات من النساء، في جمال أعينهنَّ.

ولقد آثر الشاعر هذا البناء الأسلوبي، لنجني من ورائه دلالة مجيء الإيلام من كل صوب، وإتيانه من كل مكان، وتملكه إحساس بكل هذا قد غلفه بـ " كأن " التي أسبغت على المعنى قوة الإحساس بهذا الإيلام، إضافة لمعنى الشك الذي أخذ منها [1] ؛ ليضيف إلى مشاعرنا مدى الحيرة والوله الذي أصاب "ابن الجهم" من جَرَّاء ما أصابه من سهام قاتلة، صدرت من كنانة الهوى، وصوبت من قوس الغرام.

(١) " من معانى كأن أنها تفيد التشبيه والتحقيق والشك والتقريب " ينظر في هذا مفصلاً: الجني الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي ص ٥٧٠ إلى ص ٥٧٣ ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، أ محمد نديم فاضل – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م – منشورات محمد علي بيضون.

ولقد خَصَّ "ابن الجهم" أطراف المثقفة ونَصّ عليها، ولم يقل بالمثقفة جملة، ليتناسب مع قوله: " تُشك " ؛ ولأن أطراف المثقفة وهي الأسهم المبرية المعدة للرمي يثبت في أطرافها حديدة، ليكون السهم أشد في الإيلام، وأنكي في الإصابة، وأثبت في المرمى.

وعلى الجملة: فإن مراد الشاعر هو بيان مدى الاستسلام والانقياد والركون الذي أصاب قلبه، وكأن هذا القلب في كل هذا قد شَكَّته المثقفة بأطرافها فسكن وانقاد، واستسلم وعاد إلى شوقه القديم، و وُكنات عشقه الأول.

ولئن كنا أسهبنا القول في بيان مراد الشاعر ووجهته حول هذا البيت، فإن ذلك يُعَدّ دليلاً على سخاء لغته، ومائية شعره، وخصوبة تعبيراته ؛ " لأن تنوع الوجوه التي يحتملها الكلام لا يكون إلا لبراعة الشاعر في استعمال لغته[1]."

ولا يزال الشاعر يدور حول فكرة الأبيات الرئيسة وهي عيون المها " التي فعلت به الأفاعيل، من جلب الهوى، وإعادة الشوق القديم، و إسلامها القلوب، وقولها في ظرف ودلال، وتيه وهيام:

وقلن لنا نحن الأهلة إنما نُضيئ لمن يسري إلينا ولا نقري[2]

وتخصيص الوصف لهن أي "لعيون المها" التي هي علامة على جمال الغواني، وعنوان لحسنهن وسحرهن وأنهن أهلة فيه دلالة علي أنهن لا يطلعن إلا في مواعيد محددة، ولا يظهرن إلا في أوقات بعينها، إيماء بتمنعهن ودلالهن، تماماً كما تظهر الأهلة التي هي " "مواقيت للناس والحج [3] ".

(١) الشعر الجاهلي: دراسة في منازع الشعراء د/ محمد محمد أبو موسى ص ٣ ، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م مكتبة وهبه بالقاهرة.

(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٣.

(٣) قال تعالي في كتابه الكريم: " يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج.." سورة البقرة من آية رقم (١٨٩).

وزيادة في تمام هذا الوصف في هؤلاء الحسناوات، فقد أجرى "ابن الجهم" الكلام على جهة الاستعارة المرشحة، ولم يجره من جهة التشبيه [1]، فلم يقل على لسانهن " نحن كالأهلة " ؛ لأن الاستعارة أدخل في الوصف المراد وأشد بلاغاً وبلاغة في المعنى الذي أراده الشاعر من ورائها، لا سيما وقد رشحها وقواها بقوله: " نضيء لمن يسرى إلينا ولا نقرى " ؛ إذ الترشيح يؤدى إلى ترسيخ المعنى و تثبيته في ذهن السامع، لأنه يقوم على التخييل والتناسي والإدعاء، وكأني بالشاعر تناسى أن هؤلاء الحسناوات من جنس بني البشر وادعى أنهن يقطْن في السماء، وصرنَ أهلة، ومن ثَم فهن يضئن لمن يسري إليهن، شأنهن شأن الأفلاك السماوية، والكواكب الدرية، والأهلة المؤقتة التي لا ينتظرن أحداً، وينتظرنها كل من يسرى فى نورها هداية واهتداء ودليلاً ورشاداً.

ولقد قصر "ابن الجهم" عطاءات تلك الأهلة ووجودها وإحسانها على كونها تضيء بطلعتها المشاعر، وتنور الأحاسيس، وتبعث دفء الحب بضيائها، شأنها شأن الأفلاك العلوية، مستغلاً . في بيان عفتهن وتمنعهن وترفعهن . هذا الاحتراز الرائع الذي دفع عنهن توهم أن الغانيات ربما وصلن من ينظر إليهن أو يتبع جمالهن ودلالهن وغنجهن بنظرة، أو رشفة، أو شمة، أو ضمة ؛ فأثبت تحفظه واحترازه بقوله: " ولا نقري " ؛ لينسف كل توهم في الود، ويدفع كل مظنة للوصال، اللهم إلا النظرة عن بُعد بالسهام التي ترسلها مقلهن التي تشبه مقلة المها وعيون الجآذر، أما ماعدا ذلك من الوصال بالعناق أو ما

(١) يقول الدكتور / محمد أبو موسى: " وقد رأيت عبد القاهر الجرجاني يذكر ضرباً من الكلام ذكر فيه المشبه والمشبه به ، ويعده من الاستعارة ؛ لأن الأسلوب جرى على طريقة توهم أنه هو: أعنى أن المشبه هو المشبه به ، وأنه يأخذ أحكامه." ينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان ص ٢٣٢ – الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م مكتبة وهبة ، وينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، تحقيق محمد فاضل . المكتبة العصرية – صيدا بيروت ١٤٢١– ٢٠٠١ م.

شاكهه فإن " دون ذلك خرط القتاد " [1]، وهو ما عبر عنه الشاعر بانتفاء " القرى " الذي من معناه تقديم الطعام للضيفان و ما يلزمه ويتعلق به من شراب وغيره.

ونلاحظ أن الشاعر استعمل أسلوب القصر بـ " إنما " في نفي القرى وإثبات الإضاءة للأهلة ثقة منه في أن هذا الأسلوب من أقدر الأساليب على قطع الرجاء، وبيان المراد وإيضاح المقصود.

بيد أن "ابن الجهم" لم يشف غلته . في بيان عفة الغواني وترفعهن . ما سبق من الحصر بـ " إنما " في قوله: " إنما نضيء ـ ولا نقرى " ليردف هذا الأسلوب العالي أسلوب " آخر في صورة أرفق تهدهد حدة الأولى، وتكسر سورتها التي نصت علي عدم القرى ومنع البذل ؛ ليضفى علي الحوار رونقاً ودلالاً، ولا سيما أنه صادر عن ربات الهوى، ومفعم بدلهن وتمنعهن، وبذلهن المقصور علي حديث العين، ولغة الألحاظ، فقال على لسانهن:

فلا بذل إلا ما تزود ناظر ولا وصل إلا بالخيال الذي يسرى [2]

وأشعر أن "ابن الجهم" أراد أن يقطع أنفاسنا تشوفاً إلي ما بعد إلاَّ في هذا الأسلوب " فلا بذل إلا ما تزود ناظر " في انتفاء البذل بجملته تشوقاً وتحفزاً، ثم قصره على ما تبذله المقل، وترميه المحاجر بعد عناء في طلب الوصل والحاح في غز السير ؛ لتحصيل هذه الغاية، وإدراك هذا الطلب وهو ما عبر عنه الشاعر في دقة ورقة في قوله ". لمن يسري إلينا " في البيت السابق، مستعملاً ضمير الجمع " إلينا " لتوضيح مدى الثقة التي تمتعت بها تلك الأهلة (وهن الحسان) وإظهار أنهن مطلوبات ممن يتعشقهن، في إصرار وعزم ؛ رغبة في

(١) " مثل يُضرب للشئ البعيد المنال ودونه مانع شديد " ينظر: مجمع الأمثال للميدانى ح١ ص ٤٠٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة المكتبة العصرية – صيدا بيروت سنة ٢٠١١م – ١٤٣٢هـ.

(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٣.

جمالهن، ولهفة على بهائهن و دلالهن وأملاً في بذلهن الذي لا يتعدي النظرة العجلى تلك التي وصف الشاعر الحصول عليها بالتزود ؛ إشارة إلى مدى الحاجة إليها والرغبة فيها . وإن قَلَّت . حاجة من يحتاج إلي الزاد، ويرغب فيه، وكأنه بهذه الدقة التعبيرية والجمالية يشير إلى أن تزود العاشق بالنظر إلى من يتعشق يقوم مقام حرص النهم الجائع إلى الطعام، برغبته في التزود منه، وإن كان الأول أشد تأثيراً، وأكثر لهفة، وأقوى رغبة عند من يتعشق الهوى، ويقدر سهام الغرام.

ولئن كان البذل مقصوراً لدى الغواني على النظر، فإن الوصل كذلك عندهن مقصور على الخيال، وقد استطاع "ابن الجهم" أن يسخر الطريق نفسه "أعنى طريق القصر" في بيان أن الوصل الذي يكون عادة بالتلاقي وتبادل الوجد وسماع اللوعات، هو عند صائدات القلوب شيىء آخر، فلا يصل إليه "ابن الجهم" إلا في عالم الخيال وحين يغشاه النعاس، حينما تحلق أشرعة الغرام في عوالم الرؤى:

فــلا بــذل إلا مــا تــزود نــاظرٌ ولا وصـل إلا بالخيـال الـذي يـسرى

متخذاً من طيف الخيال وسيلته الوحيدة لوصال المحبوبة، فلا عليه إلا أن يتناوم إن لم ينم ؛ حتى يحظى بطيف خيالها، أو ينعم بزيارة لها في خاطره، فيكون الكرى سبباً في إسعاد قلبه وحبور نفسه، ولله در القائل:

وإنــي لأستغــشي ومــابي نعــسة لعـل خيــالاً منـك يلقــى خياليــا[1]

؛ لأن المحبوب يبذل في الخيال مالا يبذله في الواقع، " ويبذل في النوم ما كان يضن به في اليقظة، ويصل في هذه الحال بعد صدوده في غيرها، و أن النعيم

(١) البيت لقيس بن الملوح ينظر: ديوان مجنون ليلى ص ٢٣٣، شرح عدنان زكى درويش – طبعة دار صادر بيروت – الثالثة ٢٠٠٩ م.

و المنفعة في الهجود مع طيف الخيال، كما أن الشقاء والمضرة في اليقظة مع هجر الحبيب (١)

" وفتاة "ابن الجهم" من هذا النوع الذي لا يصل إلا في النوم ولا يزور إلا في الكرى، وكأنها في ذلك "فتاة البحترى"، وكأن "ابن الجهم" في شكايته وتألمه، وزيارة طيف محبوبته له في الخيال "البحتري" الذي وصف علي نفس الوزن والقافية حالة طيف من يهواها فقال:

أقامت علي الهجران ما إن تجوزه وخالفها بالوصل طيف لها يسرى
فكم في الدجى من فرحة بلقائها ومن ترحة بالبين منها لدى الفجر
إذا الليل أعطانا من الليل بلغة ثنتنا تباشير الصباح إلي الهجر (٢)

ولقد كان البحتري أكثر الناس إبداعاً في الخيال، حتى صار لاشتهاره مثلاً يقال له "خيال البحتري" (٣) ؛ ولذا كانت أبياته في غاية الحلاوة والطلاوة، وسلاسة الألفاظ وعذوبة النسج ؛ لأنه ذكر هجران من أحب، وجعل وصلها له يخالفه كل ليلة، ويسرى إليه في غسق الدجى، فيهش له، ويفرح بلقائه، ولكنه سرعان ما يأسى عليه إذا ما فجأته تباشير الصباح وعاد إلي الهجر مرة أخري، بينما نرى "ابن الجهم" وقد استمرأ الشكوى، وبالغ في بخل الحبيب، وكشف عن دلال لها لا يكاد ينقطع، وإن كانت هي الأخرى قد وعدته الوصال بيد أن وصالها لم يتحقق، فسرعان ما رفع عقيرة الشكوى معلناً . حكاية عنها . أمارات الهجر والصدود، بعد أن أزيل قلبه عن مستقره، وألهبت مشاعره وجوانحه حباً وعشقاً لا يستقر قراره ؛ فظهر بمظهر المستكين الملتاع قائلاً في أسى وحسرة ومرارة:

(١) طيف الخيال للشريف المرتضى ص ٣٦ ، ٣٧ ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، تقديم د/ حسن البناعز الدين – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨م.
(٢) ديوان البحتري ج ٢ ص ١٠٠٤ تحقيق: حسن كامل الصيرفي – طبعة دار المعارف – الطبعة الثانية ١٩٧٢م
(٣) طيف الخيال للشريف المرتضي ص ٢٤٧.

أحين أزلن القلب عن مستقره وألهبن ما بين الجوانح والصدر
صددن صدود الشارب الخمر عندما روى نفسه عن شاربها خيفة السكر [1]
ألا قبل أن يبدو المشيب بدأننى بيأس مبين أو جنحن إلى غدر [2]

والأبيات هذه تقطر حسرة، وتفيض لوعة وحزناً على أيام قد خلت، وعهود قد انقضت، وخداع قد حل، وسراب قد لاح يلمع في صحراء بلا قع، لا حياة فيها لحب، ولا مكان لعشق، بعد أن كانت قناعات الشاعر من قبل بأن قناديل هواه مسرجة وفؤاده . من غبطته وسعادته بوصل الغانيات . يكاد ينحدر عن مكانه، أو ينحرف عن محله.

ولم يجد الشاعر في تصوير صدود الغانيات عنه وانصرافهن عن وصاله صورة أبلغ ولا أكمل من صدود شارب الخمر عنها وقد هم أن يشربها فخاف السكر، وخشي عاقبة الترنح، فولى هارباً، وانصرف قانعاً عن ذلك كله، حتى لا يقع فريسة لها.

ودقة الشاعر اللغوية وحذقه في تعبيراته يكمن في نصب مفعول اسم الفاعل (الخمر) حيث انتصب باسم الفاعل (الشارب) ودل على عدم وقوع الشرب، وبذا فلم يدمن هذا الشارب الشرب، وأصبح من اليسير عليه أن يصد عنها ويروى و ينصرف إلي غيرها، بعكس مالوجرد اسم الفاعل (الشارب) من (ال) وأضيف اسم

(١) عن هنا أتت بمعني (المجاوزة) بمعني أنه تجاوز شربها إلى غيرها مثل: أعرض عنه أى: تجاوزه إلى غيره. ينظر: شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك ص ٢٦٤ ، تأليف ابن الناظم المتوفى ٦٨٦هـ تحقيق محمد باسل عيون السود – طبعة دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م – منشورات محمد على بيضون.
(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٣.

الفاعل إلى مفعوله (الخمر) فإنه يفيد وقوع الحدث وتحقيقه وثبوته، وهذا من دقة اللغة وفروقها الدقيقة. (١)

وقد يكون هذا الصدود من الغانيات خفيف الوطأة على "ابن الجهم" لو أن الشيب بالفعل . قد وخط رأسه، أو ألم بمفرقه، أو صبغ ببياضه لمته، وأكلت بواشق نهاره أغربة ليله ؛ وذلك من قناعاته وغيره أنه مَن أصبحت هذه هيئته فلا شك أن انصراف الغانيات عنه شيء معلوم، تهيأت النفوس له، وتوقعت حدوثه، ولم تذرف عليه كثير دمع ؛ لأن أسباب الصدود لديه معروفة، والنفس معها مهيأة ومصروفة، تعترف بكل هذا وترضى؛ "فالصيف ضيعت اللبن (٢)، والجحش لما فاتك الأعيار (٣)، والواقع كما قال القائل:

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي فأعرضن عني بالخدود النواضر (٤)

لكن "ابن الجهم" أساه واسع، وحزنه عميم، حيث لم يطرأ على ناصيته شيء مما سلف، فَلِمَ الصدود ؟ وعلى أي معني يحمل الهجران ؟ إلا أن يكون الدافع عليه هو الغدر الصريح من هؤلاء الغادرات اللائي عزمن على مباغتته بيأس مبين، وإحداث شرخ لا يلتئم، وصدع لا يمحى في ذات روحه ؛ ولذا بدا الشاعر في تصوير هذا أشبه بمن يولول على نفسه، أو يرثى شبابه، مفتتحاً ذلك بـ " ألا " الاستفتاحية، التي تدل علي التنبيه (٥) ، والترقب لما يأتي بعدها لخطورته أو أهميته:

---

(١) يراجع في ذلك: شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك ص٣٠٢، ٣٠٣ – الطبعة الأولي ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ج٢ ، ص ١٥٠.

(٣) مجمع الأمثال للميداني ج١ ، ص٢٥٣.

(٤) البيت لعمر بن أبى ربيعة وهو في ديوانه ص ٢١١ – طبعه دار بيروت للطباعة والنشر – طبعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م.

(٥) ينظر: الجني الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادى ص ٣٨١ – تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة والأستاذ / محمد نديم فاضل ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

ألا قبـل أن يبـدو المـشيب بـدأنني بيأس مبين أو جنحن إلـي غدر (١)

ويشد هنا في البيت جَعلُ اليأس الذي أصاب الشاعر يأساً من نوع فريد، ووصفه بأنـه مبين أي ظـاهر علـى سلوكه بـادٍ فـي حياتـه، مسيطر علـى حركتـه ؛ لأن الغواني قصدن إلـى صرم حبلـه، وجنحن إلـى غدر وصلـه، ونكران عهده وليس ذلك عليهن بغريب، ولا بديع في سلوكهن ودأبهن (٢) ومن ثم فإن "ابن الجهم" بعد أن هدأت نفسه، واستقرت مشاعره، أراد أن يجرى مصالحة معها تماشياً مع واقعه المر، وحياته الكئيبة، فقال وكأنه همهمات النفس، وحديث الفؤاد:

فـإن حلـن أو أنكـرن عهـداً عهدنـه فغيـــر بـــديع للغـــواني ولا نكـــر
ولكنـــــه أودي الـــــشباب وإنمـــــا تـصاد المهـابين الـشبيبة والـوفر
كفـي بـالهوى غيـا وبالـشيب زاجـراً لـو أن الـهوى مما ينـهنـه بـالزجر (٣)

وتشعر في البيت الثاني انكساراً وأسىً واعترافاً بأن الشباب قد ولى، وليس هناك بعد خريف العمر مطمعاً في شيء، لَمَّا انفضَّ السامر وذبلت الأيام.

ولقد ضرب الشاعر مثلاً لذلك بالمهاة وهى " البقرة الوحشية " (٤) والتي هي مرمي لسهام القناصين، ومغنم لطمع الطامعين، ولكن شريطة أن تكون في أوان شبابها ونشاطها؛ إذْ أن الهزيلة النحيفة والصغيرة الخفيفة، والنحيلة المسنة

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٣
(٢) لقد أفرد المرحوم د/ زكى مبارك باباً تحت عنوان: (غدر الغوانى) جمع فيه طرفاً من هذا الأمر. يراجع: مدامع العشاق ص ٢٣٤– طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – الطبعة الثانية ٢٠٠٦م – سلسلة ذاكرة الكتابة.
(٣) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤
(٤) خصها بالذكر لأن صورتها في الشعر أكثر الصور معالجة عند الشعراء من حيث جمالها وحيويتها وسحرها وحركتها. يراجع في أمثله ذلك: الطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٣٧ ، ١٣٨ د/ نوري حمودي القيسي – الطبعة الثانية – ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م مكتبة النهضة العربية – عالم الكتب.

العجيفة، لا تتوجه إليها الأعين، ولا تطمح إلى صيدها النفوس، وكأن في ذلك تشبيهاً ضمنياً لحالة الشاعر، ومثلاً يرسم ما آلت إليه نفسه، ومعادلاً موضوعياً عن إنذوائه وذبوله وانصراف الناس عنه، وزهد الفاتنات في عشقه و وصاله ؛ لأن شبابه أودى، وعمره تسعسع فانصرف الناس عنه، وانفضوا كما ينفض الصائدون عن المها إن لم تكن بين " الشبيبة والوفر " بحيث تكون في حالة تجذبهم إليها، وتحثهم وتدفعهم باكتنازها وجمالها ونشاطها على قنصها وصيدها.

وقد يكون مراد الشاعر شيئاً آخر . والمعنى له يتسع . وهو أن شبابه لما ولى، لم تصبح لديه الدوافع النفسية والشكلية التي تدفعه إلى مطاردة الغانيات، أو اصطياد الفاتنات ـ والتي تشبه الواحدة منهن في جمالها وبياضها وسحر عيونها ونشاط حركتها " المهاة " [1]؛ لأن ذلك يلزمه أن يتمتع هو الآخر بنشاط واسع، وشباب وافر، وإلاّ لم يكن من وراء كل هذا كبير محصلة أو كثير رجاء.

ولقد ساق الشاعر بحكمة المجرب وحنكة الخبير ودربة المتأمل، وأعلن خلاصة تجربته الطويلة، وبوده أن ينهنه بالزجر هواه، وبالشيب غيه ولهوه، لو أن هذا نافع أو ناجع في الكف والزجر عما ذكر من قبل، ولكنه أني له ذلك، والهوى لا يدفعه دافع، ولا يرد سلطانه راد.

كفى بالهوى غياً وبالشيب زاجراً لو أن الهوى مما ينهنه بالزجر

لكنه في كل هذه الأحوال الشاحبة والأيام الباهتة لا يملك إلا أن يجتر آلام نفسه، وأحزان روحه في بكائية تشبه عويل الثكالى ونواح الحزانى، منسابة على تراتيل بحر " الطويل " ممتدة ومسترخية على أوتاده وأسبابه قائلاً:

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (مها) .

أمـــا ومـــشيب راعهـــن لربمـــا عمـــرن نيامـــاً بـــين ســـحر إلى نحـــر
وبتنـــا علـــى رغـــم الحـــسود كأننـــا خليطـــان مـــن مـــاء الغمامـــة والخمـــر
خليلـــيَّ مـــاأحلى الهـــوى وأمـــره وأعلمـــني بـــالحلو منـــه وبـــالمر
بمـــا بيننـــا مـــن حرمـــة هـــل رأيتمـــا أرق مـــن الـــشكوى وأقـــسى مـــن الهجـــر
وأفـــضح مـــن عـــين المحـــب لِـــسِره ولا ســـيما إن أطلقـــت عـــبرة تجـــري (١)

و"أما " هنا حرف استفتاح مثل (٢) " ألا " التي سبقت من قبل، والشاعر يكثر من مثل هذه الحروف تنبيهاً على أهمية ما سيذكره بعدها، وكأنه يقول لنا: انتبهوا وتيقظوا لما كان سبباً في زهد النساء عني و صدهن، ممثلاً في المشيب الذي راعهن وصدفهن عن وصل حبال هواي ورسائل جواي، طالما كُنّ قبل ذلك يسعدن بقربه، ويمسن بين سَحره إلى نحره، في دلال وسعادة، وطمأنينة ورغد عيش.

وللنظر إلى جمال التركيب ودقته ورونقه في قوله: " لربما عمرن نياماً بين سحر إلى نحر فقد كنَّي عن كثرة رغد هن معه وتمتعهن به بهذا الشطر الذي ناسب همس كلماته وسكون أوسطها، وانسيابية حروفها، وجلال إيقاعها، وجمال أدائها ماكُنَّ عليه أيام وصالهن "ابن الجهم" وتوددهن له، وسعادتهن بقربه، وأنسهن بحبه، من غير أن يعكر وداد الصفاء أو يقطع أسباب الهناء واشٍ متجسس، أو حاقدٌ متلصص:

إذ جانـب العـيش طلـق مـن تآلفنـا وَمَربَعُ اللهو صاف من تصافينا (٣)

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤
(٢) الجني الداني في حروف المعاني ص ٣٩٠
(٣) البيت لبلبل الأندلس " ابن زيدون " من نونيته الشهيرة.
ينظر: ديوان ابن زيدون ص ١٢ دراسة وتهذيب عبد الله سنده ، طبعة دار المعارف بيروت لبنان – الثانية ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م

وربما في قوله: " لربما عمرن نياما....." في موضع التكثير والمباهاة والافتخار بأيامه التي انقضت، وهي موفورة السعادة، موصولة الوداد، لا يوجد لها نظير عند آخر ؛ ولهذا أقول . زاعماً . بأن " ربما " هنا لتقليل النظير ولتكثير المباهاة والافتخار بأيامه التي غبرت سعيدة هنية، متقلباً علي وسائد الهوى الوردية، وذلك اعتماداً على سياق الأبيات بعد ذلك، ومعني " تقليل النظير" أن الشاعر أراء من وراء هذا التعبير الدقيق أن يضع في مخيلة أذهاننا، ونوافذ خواطرنا صورة فريدة لعيش هنيء، قضي أيامه مع الغانيات في صورة كثر تكرارها، وتمازجت ألونها، وتناغمت أشجانها، ومع كثرة صدورها عنه وتكرارها منه فإنه قد قلَّ نظيرها أن تصدر عن غيره أو تكثر من أحد سواه، وهذا هو معنى " تقليل النظير " المستفاد من كلمة " لربما " في سياقها.

وما كنت بدعاً في هذا التوجه وذلك التحليل لـ "ربما " لأن هذا المعنى . أعني تقليل النظير وتكثير المباهاة . قد ورد في قول امرىء القيس:

فإن أُمس مكروباً فيارب قينة منعمةٍ أُعمَلتُهَا بِكِرَانِ(١)

ولقد ذكر صاحب الجني الداني أن امرأ القيس أراد من وراء هذا البيت تقليل النظير ؛ لأنه أراد أن يقول: " بأن كثيراً من هذه الفتيات كان لي، وقلَّ مثلها لغيري. (٢) "

ولا يزال علي بن الجهم يرسم ملامح الصورة التي بدأها قائلاً:

وبتنا على رغم الحسود كأننا خليطان من ماء الغمامة والخمر (٣)

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٧٠ ، طبعة دار صادر ، والقينة: الأمة المغنية. والكران: العود. الديوان هامش (٤) ص ١٧٠.
(٢) الجنى الدانى في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي ص ٤٤٥.
(٣) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤.

وهي صورة هادئة ريانة، تكشف . في جو البيتوتة (بتنا) ـ عن جو من الاسترخاء والراحة في عالم مسحور أبطاله حوريات وشاعر نعموا بأجمل ليلة على أشرعة الغرام، وأرائك الوصال على الرغم من حنق الحساد ووشاية الحاقدين، ولعل هذا الاحتراز الرائع . على رغم الحسود . يشير بظلاله إلى أن أعين الحساد لهم بالمرصاد، وغايتها أن تفسد علي العاشق ليلته، وتفشى سريرته، وتفضح سيرته، وهذا دأبهم، وتلك عادتهم وهجيراهم [1]، لا سيما إن شَعُرَ الواشي بأن علائق الحب بين الحبيبين وشيجة، وأسبابه شديدة وروابطه متينة، ساعتئذ يشتد بشدتها سعيه، وتتلظى بقربهم أفئدته، وتتحرق مواجده.

وليس أدل على هذا القرب، ولا أظهر على قوة العلاقة وشدة الامتزاج بين العاشقين من هذا التعبير الذي ذاب رقة، وعلا حلاوة، وصفى طلاوة، وشف رواء وزاد ماءً في قوله: " كأننا خليطان من ماء الغمامة والخمر [2] " وليست هذه الشاعرية في حاجة للتعليق ؛ لأن أي رتوش علي هذه الصورة يفسدها، ويذهب بنضرتها، و أي تعليق علي هذا السحر الحلال الذي نشره الشاعر على أسماعنا كأنه لوحة طبيعية أو برود يمنية انتشرت و انتثرت فوق أفق مشرق، لا تستطيع الأيدي أن تعبث بها، ولكن تتلمسها وتعجب لها، وتراها العين وتُشده بها، ويبقي أداء الشاعر الفني وقيمته التعبيرية والجمالية غاية في الروعة ومثالاً لتصوير مدى الامتزاج والتقارب، والتوافق، والتكامل، والاختلاط الذي يشبه في كل هذا اختلاط ماء الغمامة . والذي هو غاية في الصفاء والعذوبة والانهمار والتدفق

(١) ينظر فى هذا الباب كتاب "طوق الحمامة فى الإلفة والإلاف" ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ تحت عنوان "الرقيب والواشى" للإمام إبن حزم الأندلسى ، ضبطه وحرر حواشيه د/ الطاهر مكي . الطبعة الثالثة . دار المعارف ١٤٠٠ هـ . ١٩٨٠م.

(٢) وقريب منه وأجمل قوله في مثل هذا الامتزاج:

سقى الله ليلاً ضمنا بعد فرقة * وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب

فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة * من الراح فيما بيننا لم تسرب

ينظر: الابانة عن سرقات المتبنى ص ٢٠٩ تأليف أبي سعيد محمد بن أحمد العميدي – طبعة دار المعارف بمصر. وديوان ابن الجهم ص ٧١.

والتدفق والعطاء، وكل هذا تابع من وراء التعبير به دون غيره . مع الخمر وبها ؛ إصلاحاً لها، وتخفيفاً لسورتها، وتقوية لإشراقها، وكسراً لصرفها، فبنت الكرم المشعشة أكثر استساغة في الحلق، وأشد إشراقاً في الكأس من الخالصة التي لم تمزج بماء.

يقول "ابن كلثوم" من فخره الطاغي في معلقته:

مشعشعة كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (١)

ولعل الجامع بين امتزاج العاشقين، واختلاط ماء الغمامة مع الخمر هو أوسع من أن يُحد وأكثر من أن يذكر، ولربما ذهب الخيال لبيان ما هو معنوي منه، وما هو حسي ملموس وهذا يعد من أسرار إعجابنا بهذه الصورة، وسبحاتنا وراء عوالمها وخيالاتها ودقة مفرداتها وشاعريتها (٢)

وهكذا كان "ابن الجهم" " في وصفه براعة ودقة، وهو في هذا الباب مجيد محسن، يصور الموصوف كأنك تراه بما فيه من جلال ولطف، وربما كان هذا الباب من أقوي مظاهر شاعريته، وأدلها علي قوة ملاحظته، ورقة شعوره، وحسن بيانه وقوة إبداعه (٣)."

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٠٠ ، منشورات دار مكتبة الحياه – بيروت لبنان.

(٢) ومثالها في الجمال والروعة أيضاً قوله:

أعاذل لو أضافك جنح ليل إلي وأنت واضعة اللثام
لسرك أن يكون الليل شهراً وألهاك السهاد عن المنام
أعاذل ما أغرك بي إذا ما أتاح الليل وحشي الكلام
وعنت كل قافية شرودٍ كلمع البرق أو لهب الضرام

ينظر ديوانه ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٣) ديوان على بن الجهم ٣٩ ، ٤٠

ولقد أصاب "ابن الجهم" وأجاد وأتى على المراد عندما أتى بـ " كأن " في قوله: "كأننا خليطان" التي تفيد قوة الشبه بين الطرفين ومدى التوافق والتلاؤم، إضافة إلى حيويتها ودلالتها علي أن العاشقين لم يتحولا عن بشريتهما إلى شيء آخر، ولكن يضمان إلي تلك الحيوية والحركية قوة الامتزاج وتحقيق الانسجام، ولو لم توجد " كأن " بدلالتها المشرقة لانطفأت الصورة، ولأظلمت جنباتها، ولتحول الحبيبان إلى مطلق الاختلاط دون أن نتذكر لهما أي عنصر من عناصرهما البشرية التي أضفت علي المعنى رونقاً، وأمسكت بواسطة كأن وسحرها بطرفي الحقيقة والمجاز معاً [١].

وبعد هذه الليالي الغردة الصافية الضافية، والتي قضاها "ابن الجهم" علي بساط الغرام، يتوجه الشاعر إلي خليليه . علي عادة الشعراء العرب . في الاستئناس بالخليلين وإدارة دفة الحوار إليهما ؛ إثراء للحديث، وتنويعاً في المقال، وإحداث حالة من حالات الشفقة على توق الشاعر ووجده، ومشاركته عواطفه وأشجانه، لا سيما إن كانت قضيته من هذا الوادي الذي يحرك مشاعر الحب، ويزكي أوار الهوى والجوى.

خليلـيّ مـا أحلـى الهـوى وأمـره وأعلمنـي بـالحلو منـه و بـالمُرّ [٢]

ونشعر في البيت بمدى القرب من خليليه في نداء القريب، وإعلان صرخته العاطفية عليهما ممثلة في (حلاوة الحب و مرارته) تلك الحالتان اللتان لا تكاد تفارق إحداهما الأخرى فيما يشبه التلازم الحبيب بين كل منها، فما إن يذق

(١) ولربما قال قائل بأن حذف كأن يدخل الصورة إلى باب الاستعارة وهي أبلغ من التشبيه ؛ لأنها قائمة على التناسي والادعاء ، وهذا صحيح في المطلق ، لكنها هنا – من وجهه نظري – لا يؤدي دورها دور التشبيه ،ووجود كأن التي أضفت علي الصورة إشراقاً وحركية ، وجمعت بين حقيقة البشرية والإنسانية للعاشقين ، ومجاز الامتزاج والاختلاط ، كما قلت في صلب البحث ، وعلي كل فإن النكات البلاغية والأدبية تتعانق ولا تتزاحم ، والخيال معها رحب فسح.

(٢) ديوان ابن الجهم ص ٢٥٤.

المحب حلاوة الحب ولذة القرب حتى يكتوي بمرارة الهجر ولذع البعاد [1].وكلاهما قد جربه الشاعر، وأصبح بهما خبيرا، عليما بمواجدهما ومواقعهما في القلوب، وآثارهما على إنماء الحب وإزكاء الشوق، وحلاوة الملام، وعذوبة العتاب.

ويا ماأجمل هذا التنوع الأسلوبي الذي كان سمة بارزة في تلك القصيدة العصماء عند "ابن الجهم"، والذي استطاع بمهارة وشاعرية أن يطوع اللغة الشاعرة، ويسخر طاقاتها للكشف عن غرضه، ولا أدل علي ذلك من هذا التعبير المليح الذي افتتح به هذا البيت: " بما بيننا من حرمة هل رأيتما..." ومدى استشعار الود والرقة والرأفة و الألفة التي تتخلل مفرداته، وطريقة نسجه ونظمه، وهي . أعني هذه المفردات . تكشف عن حرفيّة الشاعر في طريقة التسلل إلى القلوب وامتلاك الأفئدة، وحشد مشاعرها للتكاتف حول فكرته والتآذر مع قضيته برفق ولين.

وأشهد أنني كلما وقع نظري على هذا البيت متدبراً نظمه و كلماته يستلهى حسنُه ناظِريّ وأشعر وكأن "ابن الجهم" ينثر علي أسماعنا الدر نثراً.

ولقد صدَّر الشاعر هذا البيت بما يشبه القسم " بما بيننا من حرمة "، وآثر هذا أن يكون في صدر بيته ؛ ليستدر أحلاف ودَّ صديقيه، مشعلاً جذوة العواطف، وحرارة الأواصر بينهما وبينه بهذا "الجار والمجرور" (بما) وإضافة ضمير الجمع في بيننا إشعاراً بالألفة، وإيذانا بإقرارهما عما يسأل عنه الشاعر، ويريد أن يقرره عن طريق أسلوب الاستفهام التقريري، الذي هو أقوى من إجراء الكلام علي جهة الإخبار.

(١) ليس ابن الجهم بدعاً من الشعراء في هذا المجال ، ولكن جل الشعراء في مثل هذه المواقف يذكرون حلاوة الهوى وقرب الحبيب ومرارة البعاد ، ونأى المحبوب. يراجع في ذلك مدامع العشاق. د/ زكي مبارك تحت عنوان "سلطان الحب" ص ٥٧ ، "لوعة الشوق" ٢٢٩ ، "غدر الغواني" ص ٢٣٤.

وما ألطف وأرق وأعذب كلمة (من حُرمة) التي تهدهد مشاعر الخليلين، وترسل ذاكرتهما إلى عصر سابق، وزمن منقضٍ، حافظ كل واحد على الآخر ورعى حرماته ولا يزال.

ثم بعد هذا التحفز والتحفظ والتودد والتلطف، يسوق سؤاله سوق الغمام بأناة ورفق " هل رأيتما " ؟، ولوساق "ابن الجهم" سؤاله هذا في صدر البيت مؤخراً عنه " بما بيننا من حرمة " لضاع بهاء الأسلوب، ولذهب هذا التلطف و التشوق و التشوف إلى ما بعد الجملة الاعتراضية التي جعلها الشاعر مفتاحاً سحرياً لمراده وغايته.

ومراد الشاعر وغايته هو أن يسال عن شيء " أرق من الشكوى" وشيء " أقسى من الهجر " وشيء " أفضح من عين المحب لسره" لا سيما إن ذرفت عيناه عبرة ترقرقت في مآقيه، وانبجست في محاجره، وانزلقت في نهر خده ففضحت سر وجده(١).

(١) وصورة دموع العين التي تفضح وجد الحب ، وتكشف مكنون الفؤاد ، هي صورة شائعة في ديوان الشعر العربي ومن ذلك قول البحترى:

ما شبت من طول السنين وإنما ... طول الملامة فيك شيب راسي
نمت علي ما في ضميري أدمعي ... وتتابع الصعداء من أنفاسي

ينظر ديوان البحترى ج ٢ ص ١١٦٠ تحقيق أ / حسن كامل الصيرفي – الطبعة الثانية – دار المعارف ١٩٧٢م.

ولا شك أن العاشقين يحبون مشاهدة هذه الصورة ويعتزون بها فها هو ذا الشريف الرضي يقول:

أيسمح جفني بالدموع وأغتدي * ضنيناً بها إني إذاً للئيم =

= ولو بخلت عيني إذاً لعسفتها * فكيف ودمع الناظرين كريم

ديوان الشريف الرضي المجلد الثاني ص ٣٣٣ – طبعة دار صادر بيروت (وعسفتها) أي ظلمتها وأخذتها بالقوة.

والجواب في شرع أهل الهوى والعشق بنفي أن يكون هناك أرق من الشكوى أو أقسي من الهجر... ولكنه إذا كان ذلك من مسلمات أهل الهوي، ومن بديهيات أصحاب الغرام، فلم ظهر "ابن الجهم" في تلك الأبيات التي معنا متماوتاً متهالكاً، يصرعه الهوى، ويشفه الجوى؟ وكأنه مُعَنًّى بإثبات قضية طالما شغلته، وامتلكت عليه قلبه ومشاعره، لأن الشاعر أراد من وراء ذلك أن يمهد لمعاناة وجدانية . اكتوى بنارها من ظلوم . فتكت بمواجده، وصرعت هواه، وهذه . وربى . من جماليات "ابن الجهم"، ومن أسرار إبداعه، حيث عرف واشتهر بحسن العرض ولطف المدخل، وانسرابه إلي غرضه من غير قلق أو عناء مع تعدد المعاني واختلاف الأفكار، "وشعره يشبه شعر المطبوعين من العرب، لحن شجٍ، وعاطفة جياشة، وانتقال سريع من معني إلي آخر [1]."، وها هو ذا ينتقل . في لطف . من حوار خليليه السابق إلى حوار يجريه في براعة وإبداع على لسان " ظلوم " " وجارتها"، بما في هذا الحوار من أخذٍ وردٍ وسؤال وجواب، سالكاً نفسه طرفاً ثالثاً في سياق هذا القص والحوار الشعري العالي. يقول ابن الجهم:

وما أنس لا أنسى ظلوم وقولها لجارتها ما أو لع الحب بالحر
فقالت لها الأخرى فما لصديقنا مُعَنًّي وهل في قتله لك من عذر
عديه لعل الوصل يحيه واعلمي بأن أسير الحب في أوثق الأسر
فقالت: أدارى الناس عنه وَقَلَّمَا يطيب الهوى إلا لمنهتك الستر [2]

والأبيات تشكو مرارة الحرمان، وتسفر عن بالغ الأسى و الشجى الذى كابده "علي بن الجهم" بسبب هذه " الظلوم " وهو وصف استعمله كثير من الشعراء من قبل "ابن الجهم"[3] ؛ دلالة علي تحمله مالا يحتمل منها وتصبره

(١) ديوان على بن الجهم ص ٣٤.
(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤.
(٣) من أمثال العباس من الأحنف الذي اتخذ " ظلوم " دلالة على كتمان وإخفاء اسم محبوبته الحقيقي صوناً لعرضه ، بينما يرى آخرون أن " ظلوم " اسم لامرأة أخرى كانت للعباس. ينظر: العباس بن الأحنف دراسة مقارنة " ص ١٣٩ ، ١٤٠ د/ ليلى حسن سعد الدين – الطبعة الأولى ١٤٠٢– ١٩٨٢م منشورات مؤسسة الخافقين بدمشق.

على ظلمها وجورها وتمنعها وبخلها، وهي صيغة مبالغة بزنة " فعول "، وهذا الوصف شائع في ديوان "عمر بن أبى ربيعة"، الذي يعد أستاذ القص والحوار في الشعر الأموي غير مدافع، استعمله من قبل "ابن الجهم"، وساق كثيراً من حواراته مع صويحباته من مثل "نُعْم"، مستعملاً " قالت، وقلت، وقلنا، وقالت الأخرى "، في لغة شعرية عالية ضافية [١]، وكذلك مَنْ جاء بعد "ابن الجهم" من أمثال الشاعر الفارس " أبى فراس الحمداني " في فريدته الذائعة "أراك عصيَّ الدمع"، الذي أجرى هو الأخر حواراً: قالت، وقلت، بينه وبين فتاته [٢]، وليس ببعيد التأثر الواضح والتأثير بين هؤلاء الشعراء الثلاثة، باعتبار تقدم "ابن أبي ربيعة" على "ابن الجهم" وتأخر "أبي فراس" عنهما، مع الوضع في الاعتبار أن الحوار جاء عندهم جميعاً على هذا النسق الغزلي بلون متشابه وشكل متقارب. وليس هذا من قبيل المصادفة، أو وقع الحافر علي الحافر، إذ إن القصائد الثلاث للشعراء الثلاثة "عمر بن أبى ربيعة" [٣] وعلي بن الجهم [٤] وأبى فراس [٥] " والتي جاء فيها هذا الحوار المتماثل، جاءت علي قافية واحدة، وهي قافية "الراء"، وعلى بحر " الطويل " بهدوء وقعه، وانسيابية موسيقاه، وهذا كله يجعلنا نجزم أو نكاد نجزم بأن "ابن الجهم" قد تأثر بفتى قريش المدلل " عمر بن أبى ربيعة " الذي طوف شعره الآفاق، وسرى مسرى الرياح، و طاف البوادي والحواضر بغير جناح، كذلك الحال عند أبى فراس، الذي تثقف وتعلم، وعبَّ من الثقافة العربية في بلاط سيف الدولة ابن عمه وزوج أخته، وقرأ العديد من دواوين الشعر العربي، وعلى رأس من قرأ لهم وتأثر بهم "ابن أبي ربيعة" إعجاباً وافتناناً، "وابن الجهم" تشابهاً في المواقف، وتشاكلاً في الإباء، وتشاكهاً في المواقع

(١) ينظر في أمثلة ذلك ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ، ١٧٤ طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

(٢) ينظر ديوان أبى فراس الحمداني ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ قصيدته الرائية رواية: أبى عبد الله الحسين ابن خالوية ، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر – الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

(٣) تنظر رائية ابن أبى ربيعة في ديوانه ص ١٢٠ – ١٢٧ – وقد ولد فى عام ٢٣هـ.

(٤) تنظر رائية ابن الجهم في ديوانه ص ٢٣٥ وقد ولد في عام ١٨٨هـ.

(٥) تنظر رائية أبى فراس الحمداني في ديوانه ص ١٥٧ وقد ولدفى عام ٣٢٠ هـ

والأحداث.وفي الأبيات التي معناها تظهر روح "ابن الجهم" في إشراك المعشوقة وجارتها في الحوار، وخلق روح من الدفء الوجداني بينهم لا يخلو من التدلل والدلال الذي لا يزال الشاعر يذكره ولا ينساه.

وعبقرية "ابن الجهم" هنا تظهر في إجراء هذا التعجب علي لسان ظلوم التي تعجبت لجارتها من " شده ولع الحب بالحر "، وهي تقصد بالحر الشاعر ذاته، فقالت الجاره وقد أرادت أن تسفر عن حالة "ابن الجهم" وما أصابه من صبابة الحب، وقد أوشك على التلف والهلاك مستعملة أسلوب الاستفهام، متسائلة عن سبب هذا الهلاك والذي عبر عنه بكونه "معنيٌّ" وهي كلمة لها وقعها وميزانها وثقلها في معجم المحبين المتهالكين، حيث تدل علي تجشمه العناء، وحبسه على جسور الشوق متعباً معتلاً من شدة الوجد، مستهاماً متيماً مستعبداً بهواه، ذاهب العقل عليل الفؤاد [(١)]. وفي كل هذا الذي ذكرت من أوصاف دليل على أن الشاعر قد ضرب بسهم وافر في غزله ونسيبه وتشبيبه،" إذ أن أحسن النسيب ما كثرت فيه الأدلة علي التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة، وما كان فيه من التصابي والرقة أكثر مما يكون فيه من الخشن والجلادة، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز [(٢)] " وكل هذا الذي ذكرت يحتشد في إيجاز وإعجاز تحت هذه اللفظة التي جرت علي لسان جارة " ظلوم " وهو سؤال مفاده: "فما لصديقنا معنىٌّ " مردوفاً بسؤال" وهل في قتله لك من عذر " في مضمون هذا السؤال إجابة عن وصفه بكونه " معنىّ" وكأنما قالت لها إنه " مُعَنيٌّ " ؛ لأنه صار إلي درجة، وبلغ من الحب غاية جعلته يقتلك بحبه، ويصرعك بعشقه، ويأسرك بوجده ومعاناته العاطفية التي التمست العذر في كل ما يترتب علي تلك المعاناة من علة ظاهرة وباطنة، وهذا . في زعمي . هو السر من وراء التعبير بقوله: " وهل في قتله لك من عذر ؟"، وكان من المفترض أن يقال: " وهل في قتلك له من

(١) يراجع في كل هذه المعاني المتقاربة الدلالة: لسان العرب لابن منظور مادة (عنا) طبعة دار المعارف ، توزيع دار عمار بالقاهرة.
ويراجع أيضاً: الزاهر في معاني كلمات الناس. لأبى القاسم محمد بن القاسم الأنبارى ج ١ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، تحقيق حاتم صالح الضامن طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
(٢) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر ص ١٢٣ ، تحقيق . كمال مصطفى . القاهرة ١٩٦٣م.

عذر؟ " باعتبار أن سهام المرأة وسحر جمالها هي عادة ما تفتك بالرجل، وتؤدى بروحه، وتورده موارد الهلاك والقتل العاطفيّ، إلا أن الشاعر بناها على هذا النحو المبهر " قتله لك " ؛ ليدلنا علي أن ما أصابه من جهد في الحب، ومعاناة في مداراة الهوى وعنائه قد أسلمه كلُّ هذا إلى ما هو عليه الآن، في حالة من الوجد قتلته، ثم تعدتْ ـ لقوتها ونفاذها . إلى محبوبته و معشوقته فأصابها ما أصابه تعاطفاً معه، ورثاء لحالته، وشفقة لما حل به، وإشارة قوية على توحد الحب، واتصال المشاعر بينهما، فما أصاب "ابن الجهم" في مواجده، وما استولى على روحه هو ذاته الذي حل بفتاته فقتلها وأَرْداها.

ومن ثم فإن التعبير هذا: " وهل في قتله لك....." . وقد عللنا سببه . لا ينحو بصاحبه نحو النرجسية [١] و العجب الذي أصاب "ابن أبي ربيعة"، وقد صور معشوقاته متيمات مقتلات بسهام حبه، هائمات في إثر خطوه:

قالت الكبرى أتعرفن الفتي قالت الوسطى نعم هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر [٢]

(١) النرجسية: عشق الإنسان لذاته ، وهيامه بحب نفسه ، ونشأة هذا اللفظ له صلة بالمعاني التي تدور حوله ، وهي أسطورة عند اليونان ، حيث أطلقوا اسم (نرجس) على فتي من فتيان الأساطير بارع الحسن ، ساحر الشمائل ، يفتن من يراه ، ويُشقي بجماله وتيهه قلوب العذارى الخفرات ، فلا يلتفت إليهن ، ولا يستجيب لضراعتهن... ومن ثم فهم ينسبون مَنْ هذه صفاته إلى هذا الفتى فيقولون:" فتى نرجسي" إذا كان له صفات هذا الفتى صاحب " الأسطورة " يراجع في ذلك مفصلاً: أبونواس الحسن بن هانئ " دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي " لعباس محمود العقاد ص ٣٤ ، ٣٥ – الناشر مطبعة الرسالة.

(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٧٤ ، وقد أنكر ابن أبى عتيق على عمر هذا القول قائلاً له: أنت لم تنسب بهن ، إنما نسبت بنفسك ، إنما كان ينبغي لك أن تقول: قالت لي فقلت لها فوضعت خدي فوطئت عليه. وقد دافع عن ابن أبى ربيعة في مذهبه هذا كثير من النقاد منهم الدكتور: عبد الرؤف مخلوف.

ولم يقف بإعجاب المرأة به عند هذا الحد، فقد أخذ يصور كلفها به، وتصديها له، وأنها تدور حوله لعلها تجد سبيلاً إليه، وهو في أثناء ذلك يتدلل ويتمنع [١] يقول:

قالت لترب لها تحدثها لتفسدنَّ الطواف في عمر
قومي تصدى له ليبصرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تسعى على أثرى [٢]

لكن "ابن الجهم" " مع إحساسه في تصوير الشوق، وتبريح الهوى، ومع كونه شديد الشعور بنفسه ومحاولته إظهار أن وجد المرأة به كوجده بها، أو ينبغي أن يكون كذلك [٣] " إلاَّ أنه لم يكن لديه هذه الجرأة أو النرجسية والتيه الذي أصاب "ابن أبي ربيعة" فسرعان ما رجع الأول إلى ذاته، واصفاً إياها بالموت والتلف مما أصابها من لوعات الحب، وعشقها للحسناوات، راجياً الوصل والعطف والحنان قائلاً على لسان جارة " ظلوم ":

ينظر في ذلك: ابن رشيق ونقد الشعر دراسة تحليلية نقدية تاريخية مقارنة ص ٤٤٢ – الطبعة الأولي ١٩٧٣م – الناشر وكالة المطبوعات بالكويت. والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ج ٢ ، ص ١٢٤ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – طبعة دار الجيل بيروت لبنان ، الخامسة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(١) تاريخ الأدب العربي "العصر العباسى" د/ شوقى ضيف ص ٣٥٢ – طبعة دار المعارف – الطبعة السابعة ، وينظر المآخذ علي عمر بن أبي ربيعة بسبب هذه الأبيات كتاب: أسس النقد الأدبي عند العرب د/ أحمد أحمد بدوي ص ١٤٧ – الطبعة الأولى ١٩٥٨ م.

(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٦٨.

(٣) ينظر ديوانه ص ٤١.

عديــه لعـل الوصـل يحيــه واعلمــي بأن أسير الحب في أوثق الأسر (١)

وهو بذلك يسلك مسلك جل الشعراء " إذ لا يزال الشاعر يطلب ويأمل ويتضرع ويرجو العطف والحنان، بل لا يزال يعلن الشوق والهيام، مسترحماً مستعطفاً، أما عمر فقد عكس الصورة المألوفة في الغزل العربي، حتى بدا في غزله معشوقاً لا عاشقاً. (٢) " ولست أعجب مما انتهجه عمر لنفسه في الغزل، إذ يخيل إلي أن هذا الشاعر القرشيّ الذي تفرد بين فتيان مكة وبلاد الحجاز بمظهره وهندامه، وقسمات وجهه، وعطره المجلوب من اليمن خاصة، ثم تدلُّله بثراء والده الذي تقلب على نعيمه منذ نعومة أظفاره، إضافة إلى كلف النساء به.

لكل ما سبق من هذا التفرد والتميز، هو ذاته الذي دفعه إلى أن يتفرد في غزله، ويتميز في نهجه وطريقه عرضه لصورة المرأة المتلهفة أبداً عليه، الضارعة بين يديه.إذاً فالزهو والخيلاء اللذان توفرا لعمر، هما اللذان دفعاه لهذا التميز والتفرد حتي وصل إلى أن يعكس الصورة الراسخة للرجل العربي نحو المرأة، وبضدها تتميز الأشياء.

إلاّ أنه يوجد خيط رفيع، وصلة وثيقة بين أبيات "ابن الجهم" التي بين أيدينا ومنها البيت السابق، والتي التزم فيها الشاعر أسلوب القص والحوار في صورة مشوقة طريفة، وبين "ابن أبي ربيعة" في أبيات كثيرة، ومواقف عديدة من شعره، يأخذ ذات النهج، ويتخذ طرائق رائعة من ألوان الحوار الذي يشد النفس، ويسترعي الانتباه فيما يشبه " الحوار الدرامي " الذي ربما تأزم وتعقد ؛ لينتظر الحل والانفراجة.

---

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي " العصر العباسي " د/ شوقي ضيف ص ٣٥٢بتصرف ، وقد استأنس الدكتور / ضيف – عليه سحائب الرحمة – في قوله هذا بقول ابن رشيق في عمدته " إن من عادات العرب أن يكون الرجل هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة " ، و من ثم عابوا علي عمر قلبه الصورة المألوفة في الغزل العربى.ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج٢ ص ١٢٤.

ولا يخفي علي القارئ لفنه الشعري مغامراته الليلية التي تعرف في رائيته الشهيرة المبدوءة بقوله:

أمــن آل نعــم أنــت غــاد فمبكــر غــداة غــد أم رائــح فَمُهجَــر(١)

إلـى أن يقـول يـصف ذروة الأزمـة، وقـد حـل فـي خيمـة " نعـم " وشـعر بوجود القوم فقال:

فقلــت أبــاديهم فإمــا أفــوتهم وإمــا ينــال الــسيف ثــأراً قيثــأر
فقالــت لأختيهــا أعينــا علــى فتــى أتــى زائــراً والأمــر للأمــر يقــدر
فأقبلتــا فارتاعتــا ثــم قالتــا أقلــي عليــك اللــوم فالخطــب أيــسر
فقالــت لهــا الــصغرى ســأعطيه مطرفــى ودرعــي وهــذا الــبرد إن كــان يحــذر
يقــوم فيمــشي بيننــا متنكــرا فــلا ســره يفــشو ولا هــو يظهــر
فكــان مجــني دون مــن كنــت أتقــي ثــلاث شــخوص كاعبــان ومعــصر (٢)

وثمة صلة أخرى بين الشاعرين في هذا المنحى وهي أن كليهما استطاع أن يصور دخائل المرأة ويصل إلى أعماق شعورها، ويسبر دقائق الحب ومايثار في قلبها من المشاعر الرقيقة، وكيف تتخذ الأسباب لاسترضاء عاشقها حين تراه ينصرف عنها(٣)، وإن كانت الأخيرة هذه أظهر في شعر "ابن أبي

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٢٠
(٢) السابق ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، ويراجع في الحديث عن الرائية والحوار فيها موضوع " الحوار في القصيدة العربية " ص١٧٥ من كتاب: دراسات في الأدب العربي والتاريخ لمحمد عبد الغنى حسن – الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، ويراجع أيضا : موازنة بين رائيتى جميل بثينة وعمر بن أبى ربيعة " بحث للدكتور: محمد حسن عبد اللطيف علي في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة – العدد الخامس عشرص ١٩٧ – طبعة دار الهدى للطباعة والنشر ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.
(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي " العصر العباسي " د/ شوقي ضيف ص ٣٥٢

ربيعة" وأعلى صوتاً منها في شعر "ابن الجهم"، لكن "علي بن الجهم" في قصيدته التي معنا يبدو أرفق تسللاً، وأدق تلطفا من صاحبه الذي درج على اقتحام الليل وركوب الأهوال في الوصول إلى بعض صاحباته مثلما كان مع " نعم".

وما أروع هذا النهر الشعري المترقرق من أنغام ابن الجهم:

عديه لعل الوصل يحيه واعلمي بان أسير الحب في أوثق الأسر

وهذه الرشاقة الشعرية والنغم الداخلي، والإيقاع الموسيقى الرائع بين " عديه ويحيه "، وهذا الرجاء الهامس الواقع بينهما في " لعل"، ويظهر فيه " ابن الجهم" في حالة من الوجد الشعري الذي يأخذ بمشاعرنا نحو العذريين [١] الذين يقتلهم الشوق، ويضنيهم البعاد، ويهدهم البين، وهم متعلقون بالرجاء، متطلعون نحو الأمل في انبلاج ضوء فجر ينعم العاشق فيه بالوصال، ويسعد باللقاء.

وما أجمل أن يُجري الشاعر حواراً لطيفاً بين امرأتين مشفقتين على ما أصابه، مظهراً في براعة على لسانهما ما اكتنفاهما من قلق وتوتر وحيرة، تنم عن طبيعة المرأة، وتكشف عن تباين عاطفتها، وتأجج مشاعرها إذا ماقيست بعاطفة الرجل.

وسحر هذا البيت وجماله يكمن في أن "ابن الجهم" تحدث برقة المرأة، وتغنج بغنجها[٢] ونطق عن مكنون مواجدها، وكشف على لسانها مدى التأثر

ويراجع: جماليات النص الأدبي في التراث العربي د/ صابر عبد الدايم ص ١٧٣ ، ١٨٥ – طبعة دار الكتاب الحديث ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤ بالقاهرة.

(١) من أمثال قيس بن الملوح ، وجميل بن معمر ، والعباس بن الأحنف وغيرهم. يراجع في هذا مفصلاً: قصص العشاق النثرية في العصر الأموي د/ عبد الحميد إبراهيم ص ٣٧٢ ، ٢٤٨ – الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

(٢) ولعل مثل هذا التعليل قد دفع بعض النقاد إلى جعل قول أعشى قيس حكاية عن هريرة وتلطفاً بلسانها:

قالت هريرة لما جئت زائرها * ويلى عليك وويلى منك يارجل

والحزن والتلهف الذي يسيطر عليها عند رؤيتها لقتيل الوجد وصريع العشق ومدنف الهوى ومتيم الصبابة.

ولنتأمل هاتين الجملتين الناغمتين " عديه لعل الوصل يحيه " في حلاوتهما وجلاوتهما، لتقدم كل واحدة منها طاقة من نور، وضياء من تفاؤل، وبريقاً من أمل في الحياة الموقوفة على الوعد والوصال المغلف بالرجاء الحبيب [1]، قاطعة في الشطر الثاني من البيت . المتصدر بـ " اعلمي" الدالة على اليقين . أي شك يكون حول " أسير الحب "، مع الدلالة القاطعة بأن أسيره في أوثق الأسر ؛ لأن غله يكون عن رغبته، وقيده ورسفه في وثاقه فيه سعادته وهناه، ولذاذته في قتله و هلاكه:

علـى أن قتلـى فـي هـواك لـذاذة فيـا عجبـاً مـن هالـك متلـذذ [2]

ولذا علت نبرة الشطر الثاني، وزادت حدته، وصخب وقعه، ولم يكن فيه ما رأيناه من رقة وتكسر وشفقة في الشطر الأول. وهذا يدل على براعة الشاعر [3]، وعلمه بأن دلالات الألفاظ وإيقاع حروفها، وشفيف ظلالها، ينقل إلينا التجربة الشعرية نقلاً أميناً، يكاد يتساوى مع غيرها من الأمور التي تعمل على نقل العمل الشعري بتأثيره ووهجه من المبدع إلى المتلقي.

قالوا هذا البيت أخنث بيت قالته العرب ، وعلل لذلك بأن الأعشى تدلل في بيته كالنساء ، وحكى على لسانها تمنعها وولهها وغنجها.

ينظر: ديوان الأعشى ص ١٤٦ – طبعه دار صادر بيروت.

وينظر كتاب: صناجة العرب الأعشي الكبير " د/ مصطفى الجوزو ص ٣٨ الطبعة الأولى ١٩٧٧م – دار الطليعة – بيروت.

(١) يقول ابن رشيق: " وكلما كانت اللفظة أحلى كان ذكرها في الشعر أشهى ". العمدة ج ٢ ص ١٢٢

(٢) البيت لابن حزم الأندلسى ، وهو باب واسع ذكر في طوق الحمامة تحت عنوان: " باب الطاعة " ينظر: طوق الحمامة في الإلفة والإلاف ص ٦٨.

(٣) يقول ابن رشيق: " وكان علي بن الجهم من الفضلاء علماً بالشعر وصناعة له ، وعد شعره "وقد صلب عريانا" من جزل الكلام " العمدة ح١ص١٩٥

ولنقرأ . بعين الذوق . هذا الأمر الهادر: " واعلمي بأن أسير الحب في أوثق الأسر " مقدمة الصفة على الموصوف " أوثق "على " الأسر"، وفرق كبير . عند كل ذى حس راهف . بين التعبيرين: " في أوثق الأسر "، الذي اهتدى إليه "ابن الجهم" بموهبته، وبين " في الأسر الأوثق " الذي ربما فهم من ورائه بأن هناك من الأسر من هو أوثق منه وأشد.

ولئن كان "ابن الجهم" قد بدا بهذه الصورة من الوجد، معلناً على لسان جارة " ظلوم " نفسه بأن الحب قد ملكه، والعشق قد هيمن عليه، وأسر عواطفه، وسيطر على مشاعره فإنه بذلك يكون قد أصاب من التشبيب كبده بجعله " اللفظ رشيقاً، والمعنى رقيقاً، وظهر فيه الشاعر متماوتاً، مكثراً من الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق [1] "، ويكون أيضاً قد

(١) هذه وصية أبي تمام للبحتري عندما وفد عليه ليتعلم منه صنعة الشعر فبدأه أبو تمام بكيفية التشبيب الذي يأخذ بمجافع القلوب.
ينظر: زهر الآداب وثمرة الألباب للحصرى القيروانى ج اص ١١٣ ، ضبطه وشرحه د/ يوسف على الطويل – منشورات محمد على بيضون – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

نأي بهذه اللمسة العذرية واستلامه للمعشوق عن ساحة "ابن أبي ربيعة" الذي ركب صهوة الغزل الحسي في عصره، في جسارة وإقدام قلماً تتوفر لشاعر مثله. ولا يزال الحوار ممتداً بين الشاعر " وظلوم " وجارتها، لتعلم " ظلوم " قرارها، وتميل إلي مدارة الناس عن محبوبها قائلة:

فقلت أدارى الناس عنه وقلما يطيب الهوى إلا لمنهتك الستر (١)

وربما قالت " ظلوم " مقالها هذا من باب الشفقة على شاعرها والتي علمت من قبل أنه أشرف على الموت، أو أنه في قبضة الهلاك، ولهذا ارتأت أن تدارى الناس عن حبه، وتستره في هواه، وتصرف العيون إلي غيره، نوعاً من المواراة، وسبيلاً إلى التستر، وطريقاً يسلكانه هرباً من الوشاة والحساد، لكن "ظلوماً" مع ذلك لها رأي آخر، وقناعة مقدمة على هذا كله، تتمثل هذه القناعة في أن الهوى لا يطيب إلا لمن هتك أسرار حبه، وفضح خبيئة نفسه، وتجاسر على الكون والحياة، مصطحباً الطبيعة كلها من حوله معه.

وظلوم هنا على لسان "ابن الجهم" تميل إلى الجسارة أيضاً في إعلان الهوى، ورفع لواء القلوب الخافقة، والجوانح المتحرقة. ونشعر من هذا التوجه في إظهار الهوى وهتك أستاره أن "ابن الجهم" مال . على لسان ظلوم إلي وجهة "ابن أبى ربيعة"، واقترب من مذهبه، وأعجب بجسارته وجرأته في اقتحام الأهوال للوصول إلى المحبوبة، حتى لو وصل الأمر " بأبي الخطاب" أن يجابه القوم بسلاحه، أو يحاربهم بسيفه. يقول على لسان " نُعم ":

فقالت وعضت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

فأجابها قائلاً:

فقلت أباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثأراً فيثأر (٢)

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤.
(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص١٢٥.

لكن مع صحة ميل "ابن الجهم" إلى سلوك "ابن أبى ربيعة" وإعجابه بجرأته لم يقتحم اقتحامه، ولم يتجاسر تجاسره، حتى ولوعلى سبيل التقليد ومسايرة الموقف، لكنه اكتفى أن يمس ساحة "ابن أبى ربيعة" مساً خفيفاً، وأن يمر بحماه دون أن يتزيا بزيه، أو يقع في محاذيره، أو يصدع بهواه.

وقد كان من المتوقع عند صاحب " ظلوم" أن يتخذ من رأيها هذا " وقلما يطيب الهوى إلا لمنهتك الستر " باباً يلج من خلاله إلى جرأة صاحب " نعم" وعلانيته، لاسيما وقد رأى وسمع من " ظلوم " هذا القرار الجريئ، الذي ربما لم يجر إلا على لسان القلائل من النساء ؛ لأنه يفتح بابا إلى إشعال جذوة الهوى، وإزكاء أوار الجوى عند الأحبة، "وقد حيل من قبله بينهم وبين ما يشتهون"، لكنه . كما أسلفت القول . اكتفى أن يمس ساحة ابن أبي ربيعة دون أن يتمدد ويستطيل في ذلك كما فعل فتي قريش ؛ لأنه لما أن سمع حديث "ظلوم" وجارتها كانت المفاجأة، أصابهما الوله، وعلتهما الدهشة من تَسَمّع الشاعر عليهما، وهما يظنان أنهما منه في ستر، وعنه في تخفٍ واحتجاب.

ولنتأمل هذا الحوار " الدَّرامى " المتنامى في صوره وتعبيراته من "علي بن الجهم"، مصوراً ما مهدت له. يقول:

وأيقنتا أن قد سمعت فقالتا ... من الطارق الساري إلينا ولا ندرى
فقلت فتى إن شئتما ستر الهوى ... وإلاَّ فخلاع الأعنة والعذر
على أنه يشكو ظلوم وبخلها ... عليه بتسليم البشاشة والبشر(١)

ويبدو من سياق الأبيات أن الشاعر تسلل إلى ظلوم في غسق الليل، وسرى إليها في دياجير الظلام، وتسمع على المرأتين بوح صدرهما، وتلقائية حديثهما، وعفوية الحوار الذي جرى على لسانهما، فأظهرتا من المواجد والعواطف، وكشف أستار المهج، ما لا يرغبان في اطلاع أحد عليها حتى ولو كان الشاعر نفسه.

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤ ، وقريب من هذا الحوار ينظر ص ١١٢ من الديوان.

لكن الليل لما صبغ الحصى بمداده الأسود تمكن "ابن الجهم" من إرهاف سمعه وبلوغ غايته، بيد أنه لما كُشف أمره، وافتضح مراده، وفاجأته المرأتان بسؤال نكير يحمل المباغته، ويدل على الفجاءة، ويشي بالاستغراب: " من السارى إلينا ولاندرى؟!"

ساعتئذ أسفر "ابن الجهم" عن نفسه، وكشف عن هواه، وأعلن عن مراده، وألقى قناع الدُجى عن خيارين:

فقلت فتى إن شئتما ستر الهوى وإلاَّ فخلاع الأعنة والعذر(١)

الخيار الأول: " ستر الهوى ": وهو ما بدأ به " ابن الجهم" في إبقاء الهوى وستر الغرام، والمحافظة على أوامر الحبيب، وتقوية وثاق الأسر اللذيذ لدى كل عاشق. وهذا دليل علي أن الفتي مُعنًي بفتاته، متودد إلى معشوقته " ظلوم " التي طالما شكا بخلها وصدّها بقوله:

على أنه يشكو ظلوم وبخلها عليه بتسليم البشاشة والبشر(٢)

وما أشد دقته، وأجمل تزلفه ورقته في قوله: " إن شئتما " تاركاً لظلوم وجارتها مطلق الخيار، مراهناً في ذلك علي سلطان الهوى وهيمنة الغرام، مشركاً في هذا الأمر الجارة معها ؛ لأن الأولى قد شفها الوجد، وتملكها السّهد، وأصابتها عدوى الشعور بالحب، وقد أيقن "ابن الجهم" ذلك وتأكد منه عندما قالت الجاره لظلوم:

عديه لعل الوصل يحيه واعلمي بأن أسير الحب في أوثق الأسر (٣)

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤
(٢) السابق ص ٢٥٤
(٣) السابق ص ٢٥٤

وشيئ آخر في سر مخاطبتهما بألف المثنى وهو أنه أراد أن يستدر عطف ظلوم، ويكتسب معه عطف جارتها، ويستميل هواها ويأخذها في ساحته ؛ ليجعلها أداة يضغط بها على محبوبته إذا ما تنكرت له، أو تجاهلت عشقه، وباعدت وصله.

وما أعذب لحنه الآسر، وموسيقاه المتكسرة على درج تودده في لغته الرقراقة التي شَفَّتْ في شطره الذي ابتغى من ورائه ستر الهوى. ولنقرأ:

" فقلت فتى إن شئتما ستر الهوى" ؛ لتوافق مبانيه معانيه رقة ورشاقة ورقرقة وشقشقة، في مقاطع متطاولة منفتحة ومرسلة، وكأنما في استرسالها تبعث إلى فتاتيه زخات هواه، أو تعبق بزفراته المنبعثة مع ألفاته ومداته أجواء مقامه ومقاله، بينما يتحول في شطره الثاني إلى عكس ذلك تماماً ؛ لأنه يحمل الخيار الثاني الذي ادخره وجعله بديلاً عن الأول.

الخيار الثاني: " وإلا فخلاع الأعنة والعذر [1] ":

ويبدو من وهج الأسلوب وتصدره بـ " إلاّ " التحذيرية الراعدة أن الشاعر انتوى إعلان الصدود، وخلع الأعنة وطرح كل وصل ووداد، معلنا مجابهة الأمر بكل ما أوتى، مجسداً ذلك كله في صيغة المبالغة " خَلَّاع " بزنة" فَعَّال"، ثم بهذه الكناية الجميلة المعبرة عن كل ماسبق " خلاع الأعنة "، جاعلاً من خلع العنان، وهو " اللجام " الذى هو موضوع لإحكام سير الفرس، وضبط حركاته، والسيطرة على سرعاته، كناية عن جموحه وشروده، وعدم إبقائه على شيئ، وطرح كل أمر تمسك به قبل ذلك، ورجا دوامه وعمل على وصاله.

(١) الأعنة جمع عنان وهو سير اللجام ، والعذر: جمع عذار وهوما سال من اللجام على خد الفرس ، وخلع العذار كناية عن الانهماك في الغىّ وعدم المبالاة بشيئ قولاً وفعلاً كالفرس بلا رسن.ينظر الديوان ص ١٣٨ هامش (٢١) .

وليس عنانا واحداً يخلعه "ابن الجهم" ولكنها عدة " أعنة "، دليلاً على تحلل الشاعر من كل ما يقال عنه هوى، ومجابهة واقعه بكل وسيلة وحيلة، وعدم الاكتراث بأسر الحب أو الإبقاء على أعنةّ المواجد وَلُجُم الهوان. وهو في هذه المكاشفة وتلك المجابهة يذكرنا بمجابهة "ابن أبى ربيعة" لآل " نُعم " الذين اكتشفوا تسلله إلى فتاتهم في جنح الليل، فلم يجد بُداً من إعلان الحرب عليهم:

فقلت أباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثأراً فيثأر(١)

غير أن "ابن أبي ربيعة " جعل المجابهة بينه وبين قوم " نعم " تأخذ في حالة من الدفاع عنه حبه وهواه ونفسه الجريئة وموقفه المتأزم، أما تلميذه "ابن الجهم" فمجابهته بينه وبين نفسه، ومعركته تنحصر في حواره الذي أجراه مع ظلوم وجارتها، وكان من نتيجته أن رفع الشاعر عقيرة شكواه، خالعاً أعنة الوصال والقرب، مع تكنف الشكوى بالحسرة، وتغليفها بالضعف الذي سرعان ما تسلل إلي نفسية "ابن الجهم"، فأعلنها مدوية سافرة عن مواجده المحترقة:

على أنه يشكو ظلوم وبخلها عليه بتسليم البشاشة والبشر (٢)

وعلى إثر هذه الشكاية التي نسبت ظلوم إلى البخل، وأفردتها بالمنع عن شاعرها المتيم الذي ضَجَّ بهذه الشكوى العالية الصوت المنطلقة في الآفاق لتقرع أسماع الزمان، وما أشدها من شكوى، وأمرها في فحواها ومغزاها، الذي نَمَّ عن أن ظلوم بخلت بأيسر الأمور، بل ومنعت أسهل الأشياء وهى بذل البشاشة، وإطلاق المحيا بالبشر في وجه شاعرها ؛ ومن ثم فقد كان ذلك الإعلام بمثابة " الهجاء " الذي أطلقه الشاعر في أوجه الحاضرين ضد " ظلوم " التي سمته

(١) ديوانه ص١٢٥
(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤

باسمه، بل واعترفت بأنه هجاء صريح لها خاصة، وإن عبرت عنه بضمير الجمع:

فقالت هجينا قلت قد كان بعض ما ذكرت لعل الشر يدفع بالشر (١)

و مشاكلة لأمرها، ومسايرة لاعترافها بهجاء الشاعر لها، خاطبها " ابن الجهم" بنفس معتقدها قائلاً: " قد كان بعض ما ذكرت....." ثم نهنه غَرْب فزعها، وسَلَّ سخينة هلعها وهدهد روع فؤادها بقوله: " لعل الشر يدفع بالشَّر " في حكمة عالية، وعبارة راقية، مصدرة بـ " لعل " الدالة على الترجي والإشفاق، لكنها هنا أقرب لمعنى " التعليل " (٢)، فكأن الشاعر أراد أن يقول: إن كان هجاء قد وقع مِنى لكما، فهو ثمرة عما قد متما لي من بخل وتجاهل وصد وحرمان ؛ لأن الشر يدفع بالشر فكأنه بذلك يُعلل لزعمها ومعتقدها في هجاء الشاعر لها.

ولقد شاكل " "ابن الجهم" بين ما وقع منه وكان بمثابة الجزاء، وما وقع منها من صد وبخل كان سبباً ترتب عليه الجزاء السابق معبراً عن كُلٍّ بلفظ " الشر ":

الشر الأول: " مدفوع " وهو من " ظلوم " ممثلاً في بخلها بتسليم البشاشة والبشر.

الشر الثاني: " دافع للأول " وهو من الشاعر، ممثلاً في إعلانه عن هذا البخل، وإذاعته عبر القوافي والسامعين ؛ رغبة في زجرها ونهيها، وطمعاً في وصالها وقربها.

بيد أن " ظلوم " لم تقنع بما قاله الشاعر، وما حاول أن يثبته في ذاكرتها وخاطرها، فقد عاجلته بلوم آخر، يُضاف إلي سابقه، من زعمها هجائه لها فقالت له:

---

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤

(٢) إفادة لعل للتعليل معنى أثبته الكسائي والأخفش. ينظر في ذلك: الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي ص ٥٨٠

فقالت كأنها بالقوافي سوائر يردن بنا مصراً ويصدرن عن مصر (١)

وذلك في نوع من إلقاء تهمة في إذاعة ما سبق ذكره من أسرارها، مما يسبب لها ولجارتها نوعاً من الحرج من استعمال الشاعر قوافيه السائرة الذائعة التي تحل في مِصْرٍ وتصدر عن آخر، متغنية بمواجدها ودواخل مشاعرها، وهو مما لا تحب "ظلوم" أن تشيعهُ أو تذيعهُ، ولا سيما على هذا النحو الذي ارتضاه الشاعر في زعم "ظلوم".

لكن " ابن الجهم" قطع عليها ظنها، ومنع أشرعة خيالها أن تمتد وتتحلق في أوهام زعمها، وألوان ضلالاتها قائلاً لها: أسأت الظن بى لست شاعراً، ممن يسيرون القوافي وينشرون الأسرار:

فقلت أسأت الظن بى لست شاعراً وإن كان أحياناً يجيش به صدري (٢)
صلى واسألي من شئت يخبرك أنني على كل حال نعم مستودع السر
وما الشعر مما أستظل بظله ولا زادني قدراً ولا حط من قدري
وما أنا ممن سير الشعر ذكره ولكن أشعاري يسير بها ذكري
وللشعر أتباع كثير ولم أكن له تابعاً في حال عسر ولا يسر
ولا كل من قاد الجياد يسوسها ولا كل من أجرى يقال له مجري (٣)

ووقفة مع هذا الحوار المحتدم بين " ظلوم" وشاعرها " ابن الجهم" يظهر لنا أن الشاعر في رده علي " ظلوم " وإساءتها الظن به في إفشاء سرها قد نفى عن نفسه الشاعرية، وكأنه من باب أن الشعراء عادة ما يتغنون بعواطفهم ومواجدهم

(١) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤.
(٢) الضمير فى (به) يعود على الشعر المفهوم من لفظة (شاعراً).
(٣) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٤ ، ٢٥٥.

وعلاقاتهم بمن يتعشقونهن، ومن هذا المنطلق قال لها: " لست شاعراً " وإن كانت الشاعرية على المطلق مما يفتخر الناس بها ويتباذخون بصفتها، وأما من باب جيشان الصدر والعاطفة بالشعر ورؤية الأشياء تخييلاً عند الشعراء قبل وقوعها فقد أثبته لنفسه، وافتخر به وهو من أوجه الشعر المحمودة، وأحد الأمور التي يتفرد بها الشاعر عن عوام الناس وخواصهم. لكن مركوز الشاعر هنا هو نفيه عن نفسه أنه مذياع للأسرار، وقد أساءه هذا الاتهام من " ظلوم " وأغضبه ؛ لذلك كثف الأمر، وشدد الطلب، وألهب الأسلوب في قوله: " صِلي واسألي من شئت.." ثقة في نفسه، وتحديا في كرم أخلاقه وصفات رجولته، ولا غرو، " فهو من كملة الرجال، وعلمه بالشعر أكبر من شعره[1]"، لكنه رأى أن تتحقق معشوقته وتتيقن ممن شاءت ؛ لتعلم الحقيقة صادرة عنهم في إخبار مجمع عليه بأنه " على كل حال نعم مستودع السر " واعتراض الشاعر بجملة " علي كل حال " ينم ويشير إلى مدى تحكمه في ذاته، واعتزازه بنفسه، وتمكنه من تصرفاته، وتحرزه في انفعالاته، فهو في حالة التبرم بالحبيبة، والضجر من تصرفاتها وتباعدها يستوي في ضبط نفسه مع حالته، وقد أسعده القرب وأرضاه الود بعد الصد، لذلك احترز واعترض بين " أن " وخبرها بجملة " علي كل حال " ليبرز لنا ضبط انفعاله، وتحكمه في أمره، واعتزازه بحفظ أسرار الغير وتقدير مشاعرهم متخذاً من ذلك وجهة " للاعتداد بنفسه ونسبه وشرف مكانته وظهور نعمته [2]." وهذا يعد مكوناً أساسياً لشخصية " ابن الجهم" الذي طالما ظل طوال عمره يعزف على قيثارة العزة وأوتار الرجولة، دافعاً عن نفسه ثوب المذلة، خالعاً ربقة الخشوع، متأبياً أن يستظل بظل الشعر، أو يستجدي رفده وينتظر مدده، كلا ولا زاد الشعر من قدره ولاحط منه ؛ لأنه يضرب قبل الشعر بجذور عريقة من المجد والرفعة وشرف الأرومة:

(١) أخبار أبي تمام لأبي بكر محمد بن يحي الصولى ص ٦١ ، ٦٢ تحقيق محمد عبده عزام وآخرون – طبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ، وينظر ديوان علي بن الجهم ص ٢٣.

(٢) يراجع الديوان ص ٢٥

ومـــا الـــشعر ممـــا أســـتظل بظلـــه ولا زادنـــى قـــدراً ولا حـــط مـــن قـــدري (١)

ويـأبى الـشاعر أيـضاً أن يكـون همـلاً خـاملاً مُطَّرحـاً منتظـراً أن يرفـع الـشعر خسيسته أو يعُلى مجده ويُسيّر ذكره، وكثيراً من فعل بهم الشعر ذلك، إلا أنه يرفض هذا الأمر بواقع أصله، وطبيعة تكوينه، ورفعة مخبره، وروعة منظره، لكنه يرضى أن تسير حسن مسيرته وطيب سيرته بشعره لا العكس يقول في عزة:

و مـا أنـا ممـن سَيَّر الـشعر ذكـره ولكـن أشـعاري يـسير بهـا ذكـرى (٢)

وكأننا مع هذه " الأنا " العالية أمام أبي الطيب " المتنبي " الذي سخر الدهر لشعره، وجعله راوياً وبوقاً يقرع به سمع الزمان في قوله:

ومـا الـدهر إلا مـن رواة قـصائدي إذا قلـت شـعراً أصـبح الـدهر منـشداً
فـسار بـه مـن لا يـسير مـشمراً وغنـى بـه مـن لا يغنـي مغـردا (٣)

جاعلاً من شعره أيضاً مادة يختصم في دقائقها الخلق، وتحتدم آراؤهم حولها، ساهرين متفكرين في أقواله وأشعاره، بينما هو نائم ملُء جفونه، وهذا قمة الزهو والخيلاء عند المتنبي.

أنـام مـلء جفـوني عـن شـواردها ويـسهر الخلـق جراهـا ويختـصم (١)

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٤
(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٥
(٣) شرح ديوان المتنبي المجلد الاول ، القسم الثاني ص ١٠ ، صنعه عبد الرحمن البرقوقى – منشورات محمد على بيضون – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م.

والوجه الجامع بين الشاعرين هو الأنفة والاعتزاز بالنفس عند كليهما، وإعلاء صروح الكرامة وطغيان " الأنا " وإن كانت الأخيرة هذه طاغية عند المتنبي، متضخمة لديه بالقياس إلي صاحبه " ابن الجهم" الذي آثر ألا يسوقها إلا في موضوعها وألا يعرض لها إلا إذا احتدمت الظروف والمواقف.

وغاية الشاعر هنا أن يتحلل من كل مذلة ربما تسبب الشعر فيها ثم ليتبرأ من كل منقصة قد يجرها القريض وبالاً أو خسراناً أو صغاراً عليه، لذلك أخذ يعدد نمطاً من الشعراء صاروا للشعر أتباعاً فذُلوا به وأذلوا أنفسهم رغبة في العطاء وتطلعاً إلي الذكر والغنى، لكن "ابن الجهم" ليس من هؤلاء على حد قوله:

وللشعر أتباع كثير ولم أكن ... له تابعاً في حال عسر ولا يسر
ولا كل من قاد الجياد يسوسها ... ولا كل من أجرى يقال له مُجري (٢)

بل هو على كل حال غير كل من ذكر، وفوق كل من قارن، ولئن فرض واقعه عليه أن يكون شاعراً فهو متفرد غير تقليدي . علي حد زعمه . فليس له شبيه ولا نظير، وكل ذلك قد عرضه في روعة ورمزية وتلميح و تعريض سنعرض له في الفصل الثاني الذي سنتحدث فيه . بإذن الله . عن حسن تخلصه من الغزل إلي المدح، وروعة تسلله من غرض إلى غرض، والأسباب التي حدت به في أن يختم غزله الرقيق سالف الذكر بهذا الفخر الذاتي الذي جعله باباً يدلف من خلاله إلي مدح الخليفة جعفر " المتوكل " في رصافيته البديعة.

(١) شرح ديوان المتنبى المجلد الثاني القسم الرابع ص ٦٣ .
(٢) ديوانه ص ٢٥٥.

الفصل الثاني

القيم التعبيرية والفنية في حسن التخلص وروعة التسلل من الغزل إلى المدح في القصيدة "الرصـــافية"

الفصل الثاني

القيم التعبيرية والفنية في حسن التخلص وروعة التسلل من الغزل إلى المدح في القصيدة " الرصافية ".

وفي هذا الفصل نوضح جانب الإبداع وروعة التخلص عند "ابن الجهم" من الغزل إلى المدح وكيف وصل إليه الشاعر في انسيابية ورقة وعفوية تشهد له بالنبوغ، وتشير له بالعبقرية والإبداع، وسنعرض في هذا الصدد أمرين.

الأول: حسن التخلص وروعة التسلل من الغزل إلى المدح.

الثاني: جعل الغزل في مقدمة مدح " المتوكل " وسبب ذلك.

الأمر الأول: حسن التخلص وروعة التسلل من الغزل إلى المدح:

ويلفتنا في هذا الأمر ويسترعي انتباهنا عدة أمور هي:

أولاً: أن الشاعر في ختام غزله ومخاطبته لمحبوبته نفى عن نفسه الشاعرية، وإن كان قد قدم لنا في مستهل " الرصافية " درراً وأصدافاً ولآلىء تشهد بشاعريته وضلوعه في مجال الإبداع الفني، بيد أنه استدرك بعد أن قال: " لست شاعراً " بقوله: " وإن كان أحياناً يجيش به صدري "، ليجعل لنفسه طاقة يدلف إليه من خلالها إذا ما دعته شاعريته إلى مدح الخليفة وإلا لقامت عليه الحجة بأن نفى عن نفسه الشاعرية، وذلك إذا أُخذ هذا الأمر بمأخذ الجد وعلى سبيل الحقيقة، وهذا أمر مستبعد ؛ إذ الشاعر يريد من وراء هذا الادعاء المتمثل في " نفى الشاعرية " عن نفسه شيئاً آخر قصد أن يؤسس له، وهو أن الشاعرية عنده إنما تفجر بركانها، وفاضت أنهارها، وانهمرت سحائبها، واحتشدت كتائبها بفضل الخليفة وقرب الشاعر منه، وكأن الشاعرية هو بابها، والإلهام هو مصدره ؛ بإحسانه إلى الشاعر وتقريبه له، وإغداقه عليه ولاغرو في ذلك " فقد كان المتوكل أمل "ابن الجهم" الذي طالما نشده، خليفة أظهر خصائصه الوداعة والكرم، يرى رأى أهل السنة وأصحاب الحديث، ويرتاح للشعر، ويؤثر مجالسة الأدباء [1] "

(١) ديوان على بن الجهم ص ١٢

ثانياً: لقد ركز "ابن الجهم" أيضاً في حسن تخلصه من الغزل إلى المدح على أن ينفي عن نفسه أنه ممن لا يستظلون بظل الشعر بقصد التكسب أو جعله مصدراً من مصادر تكثير الأموال باستجداء ما في أيدي الأغنياء، لأن ذلك مما يشينه و لا يزينه، فما رفع الشعر قدره، ولا حط من قدره " لأنه من كملة الرجال ومشهود له بجزل الكلام، وكونه من الفضلاء علماً بالشعر وصناعة له كما يقول صاحب العمدة [١] "

لكن الشاعر قال:

وما الشعر مما أستظل بظله ولا زادني قدراً ولا حط من قدري [٢]

ليعلم " المتوكل " . وهو الذكي الألمعي . أن مدح "ابن الجهم" له إنما مبعثه . قبل كل شيئ . الحب والإخلاص والولاء للخليفة، وليس رغبة في التكسب، ولا تملقاً للعطاء، ولا مدفوعاً لانحطاط قدره، ولا جبراً لانكسار ظلعه. وفي هذا التعليل والتخفي والنفي والترفع مسلك لطيف، وباب دقيق يتسلل من خلاله الشاعر إلى إثبات أن مدحه للخليفة بعيد عن كل ما من شأنه أن يكدر صفو القول، أو يتنقص من جلال المدح وغرر الوصف، ولا يكون ذلك خالصاً " لابن الجهم " إلا إذا أثبت بفصيح القول وسحر البيان ما يبرهن ويدلل على بعده عن ساحة المتملقين من الشعراء، وإلحاحه على نفي أن يكون من بينهم، وإعلانه المؤكد على أنه أرفع منهم قدراً، وأعلى كعباً، ليعلم الخليفة له مكانته، و ينزله منزلته ؛ تقديراً لقوله، وإشادة بفنه وشعره، و قد كان ما تمنى، فقد قال المتوكل في أحد المواقف عن شعره مخاطباً الحاضرين: " قوموا التقطوا هذا الجوهر لا يضيع. [٣] "

(١) العمدة لابن رشيق ج١ ص ١٩٥.
(٢) ديوان على بن الجهم ص ٢٥٤.
(٣) العمدة ج ١ ص ١٩٥.

وجدير بالقول بأن المتوكل لا يقول هذا إلا إذا توفر في شعر " "ابن الجهم" كل عناصر الجودة، وجل سمات البلاغة التي تحصل من وراء سهولة التعبير، ويسر النطق به، وانسياب المفردات، وقدرتها على وصول المعاني إلى السامع:

يقول الجاحظ: " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان [١] "، وشعر "ابن الجهم" ليس ببعيد عن هذه المقاييس النقدية ؛ لذا فقد حاز إعجاب كثير من الخلفاء قبل النقاد والنبهاء.

ثالثاً: مهد "ابن الجهم" لمدح المتوكل أيضاً بإيضاح مكانته في ذاته ومنزلته في نفسه، بعد إيضاح مكانته الشعرية دون رتوش خارجية، أو مؤثرات طارئة على شخصيته، فهو معلوم المكان، مرموق المنزلة، يطلبه الخلفاء، ويستحسنون شعره [٢]، ويجلس للحكم بين الشعراء، فيرفع شاعراً ويخفض آخرا في أسلوب مقنع ؛ وذلك لنشأته في بيت علم وفضل وأدب، وفضلاً عن ذلك " فقد كان ظاهر النعمة مترفاً، له خدم وعبيد و حجاب، وفي داره عدد من حسان الإماء يجتمع فيها خاصة إخوانه وأصحابه، فيعمرون مجالس الشعر والأدب والأنس والطرب [٣] " ؛ و من ثم فليس من المستنكر عليه أن يسير ذكره بشعره، لأنه . في زعمه . ممن لم يشهرهم الشعر، لكنه بعلمه وفضله وأدبه وأخلاقه طارت شهرته. يقول:

وما أنا ممن سير الشعر ذكره ولكن أشعاري يسير بها ذكرى
وللشعر أتباع كثير ولم أكن له تابعاً في حال عسر ولا يسر(٤)

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ص ٦٧ تحقيق وشرح عبد السلام هارون. تقديم عبد الحكيم راضي – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة.
(٢) من أمثال المأمون ، والواثق ، والمعتصم. ينظر الديوان ص ١٠ ، ١١ ، ١٢.
(٣) ينظر في ذلك الديوان ص ٢٥
(٤) السابق ص ٢٥٥

في دعوى للترفع عن المذلة، ورفض التكسب بالشعر، حتى ولو أخضعته الظروف لضيق عيش وقدر رزق.

رابعاً: لقد أفصح الشاعر – في آخر بيت له من هذا التخلص الرائع . عن مراده، وفض مكنون سره، وكشف خبيئة نفسه في أسلوب تعريضي دقيق، مهد له بخمسة أبيات سابقة عليه، قد أسلفنا القول عنها والتعليق عليها، لكنه في ختامها استعمل أسلوب التعريض بغيره من الشعراء ؛ ليتفرد هو عند الخلفاء فقال:

ولا كل من قاد الجياد يسوسها ولا كل من أجرى يقال لم مجري (١)

مُسقِطاً هذا الأسلوب اللطيف على منافسيه من الشعراء الذين يتملقون الخلفاء وعلى رأسهم " "المتوكل "، ويحاولون جاهدين أن يطمسوا هوية "ابن الجهم" ويطفئوا نجمه، ويقتلوا سعده، لكنهم عبثاً حاولوا، فلقد حظي "ابن الجهم" بمكانة مرموقة عند المتوكل " قربه إليه واتخذه جليساً وأنيساً، وجعله من خاصته وندمائه، وكان يرسله في حاجاته، ويفضي إليه بأسراره، ويثق به ويأنس بمجالسته منفرداً ومع الندماء، ويطلعه على أمور الخاصة (٢) " وكونه استقل هذه المنزلة عند الخليفة، فلا بد أن يتفرد بكل ما سبق ذكره عن زملائه ونظرائه من جلساء الخليفة، وإن تشابه معهم، أو تشاكه في بعض المواقف، لكنه يبقى معه السر، ولديه التميز والتفرد، " فليست الخوافي كالقوادم (٣) "، ولا كل من قاد الجياد يستطيع أن يروضها ويسوسها ويأنس لها وتأنس به، فقادة الخيل كُثر، لكن ساستها ومن يعلمون لغتها، ويتفهمون حمحمتها، ويتفرسون نظرتها، ويترجمون عبرتها قليل ونادر ؛ ولذا فقوله: " ولا كل من قاد الجياد يسوسها " أسلوب تعريضي، لطيف المعنى، شديد المغزى، بعيد الغور، أراد الشاعر من ورائه أن يصف أقرانه عند الخليفة بالتقليد، ويسمهم بالتصنع والتكلف، كما انتوى

(١) السابق والصفحة
(٢) السابق ص ١٣
(٣) مجمع الأمثال للميداني ج ٣ ص ١١٧

أن يغمزهم في شاعريتهم، ويدحرهم في بديهتهم وتلقائيتهم، ناهيك عن تكلفهم حب الخليفة، والإخلاص له، ففرق كبير بين من " يقود " وهم الشعراء المتحلقون حول الخليفة، لا يجيدون مدحه، أو إسداء المشورة له، وبين من "يسوس" وهو الشاعر نفسه الذي آثر أسلوب التعريض ؛ لأنه من الأساليب القوية، المعبرة عن مراد صاحبها ومقصوده.

وحقاً قد حمل إلينا هذا الأسلوب مراد الشاعر محملاً برائحة التهكم والسخرية والاستهزاء بغيره من جلساء الخليفة الذين دبروا له المكائد، وحاكوا له عند الخليفة الدسائس حقداً عليه وحنقاً لقربه منه؛ لذا فقد وقع التعريض هنا موقعه، وآتى أكله ؛ " لأنه من الأساليب العربية العريقة، استعمله الشعراء، ولا يحسن التعريض إلا ثلباً [١] "، وفي مقام الذم.

وشيئ آخر عن سبب إيثار "ابن الجهم" أسلوب التعريض هذا عن التصريح المباشر للتعبير عن مقصوده وهو: أنه أراد أن يمايز بينه وبين غيره من أقرانه عن طريق استنباط الميزة له بعد تفكر، وتدبر أوجه التباين بينه وبينهم، وإدراك البون الشاسع الذي تتفرد به شخصيته عن غيره، وذلك بمقدار مدى المفارقة و الاختلاف المعلوم بين من يقود الجياد بمقودها، جاعلاً حبلاً في أعناقها يجرها به قسراً [٢]، وبين من يسوسها ويروضها [٣]، ويتعرف على طبيعتها، ويألفها ويكون بينهما مطلق الود والتفاعل ؛ ولذلك قيل: " الخيل أعلم بفرسانها [٤] "، بل " والخيل أعلم من فرسانها[٥] "، وجلى واضح الفرق بين من يقود الخيل وبين من يسوسها ويروضها كما قلنا.

(١) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/أحمد مطلوب ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ مادة (ت ع ر) الطبعة الثانية ١٩٩٣ / مكتبة لبنان بيروت. ويراجع: العمدة ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٢) لسان العرب لابن منظور (قود)
(٣) السابق مادة (سوس)
(٤) مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٣٦٣
(٥) مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٣٦٣

وهذا الفرق البعيد بين التعبيرين هو الذي دفع "ابن الجهم" أن يجعلهما مادة للتعريض بخصومه، " لأن التعريض أرجح من التصريح، والنفس إليه أميل، إذ المعنى الذي يدرك من ورائه بعد الفكر ألصق بالقلب من المعنى الذي يدرك مباشرة بالتصريح [١] "، لا سيما وقد انتقل معه الخيال والفكر من المعنى الذهني المجرد إلى الواقع الذي تجسد في قيادة الخيل وسياستها. ومثله في التأويل والتفسير شطره الثاني من البيت محل التحليل والتدقيق في قوله: " ولا كل من أجرى يقال له مجرى "، جاعلاً محل النظر يسبح في فضاء الخيل المنطلقة الأعنة في جَرْي لا ينقطع مداه ولا يتوقف صداه، بيد أن "ابن الجهم" أراد من هذه المفاضلة في المعنى التفريق بين "المُجرى" الذي يشده أعين الناظرين، ويخلب بمهارته . في إجراء الخيل . قلوب وأفئدة المشاهدين في تفرد فريد، بأوضاع وهيئات يستحق معها أن يطلق عليه بحق "مجرٍ للخيل ". و من هذه صفته وصنعته وهجيراه وطبيعته، لا يختلط به غيره . في أية حال –، ولا يستوي مع آخرين ممن يزجرون الخيل في غير مهاره تذكر، أو تفرد وتميز يحمد لهم ويُشكر. ولا شك أن كل هذه المعاني التي سقناها محتشدة في هذا الشطر البليغ الذي ضم " سهولة التعبير ويسر النطق، وانسياب المفردات، وقدرتها على إيصال المعاني إلى المتلقي [٢] " قد أراد "ابن الجهم" أن يسقطها علي حالته، ليمايز بينه وبين خصومه عند الخلفاء، ليتضح بعد هذا التعريض تفرده عن غيره، وتميزه بطبعه وسليقته وإبداعه وموهبته بين أقرانه ممن يدعون الموهبة و الإبداع، إدعاء من يُجْرِي الخيل تصنعا وتكلفاً، وليس بأهل لكل هذا ؛ ولذا فسرعان ما يصيبه العطب، ويلحقه العجز و الكلل، وجماع أمره ولسان حاله ينطق به قول الشاعر:

(١) معجم المصطلحات البلاغية د/ أحمد مطلوب ص ٣٨٢ (ت ع ر) بتصرف
(٢) النقدية العربية من الأصمعي إلى ابن خلدون " دراسة في معايير نقد الشعر عند العرب " د/ قيس كاظم الجنابي ص ٦٨ – الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م – الناشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

ولـــن أكـــون كمـــن ألقـــى رحالتـــه علـى الحمـار وخلـى صـهوة الفـرس (١).

" فليست النائحة الثكلى كالمستأجر [٢] "، " وليس لمحتال في حسن الثناء نصيب [٣] ".

خامساً: وعود علي بدء، فقد قصد " ابن الجهم" إلى هذا التخلص الرائع الذي أثبت فيه . على مدار ستة أبيات . مكانته وثباته، وتفرده، وميزته عن غيره، وذلك عن طريق التعريض والتلميح، وكأنه أراد أن يقول للخليفة: " أعط القوس باريها " [٤]، ويلفت أنظاره إلي نفاسة ما يقوله، وندرة ما يمدحه به ويدبجه فيه.

هذا الأمر ليس عن طريق المصادفة ؛ لأن من يقرأ أبيات المدح بعد ذلك في " المتوكل " يدرك أن الشاعر قد نجح في التمهيد لمكانتها و تهيئة النفس وتشويقها إليها، وفخره بتلك المدائح التي سار الشعر بها مسار الشمس يقول:

فسار مسار الشمس في كل بلدة وهب هبوب الريح في البر والبحر

(١) البيت لخداش بن زهير في: عيون الأخبار لابن قتيبة الدينورى ج ١ ص ٢٣٥ ، تقديم د/ عبد الحكيم راضى – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م

(٢) مجمع الأمثال للميداني ج ٣ ص ١١٠

(٣) السابق ج٣ ص ٩٠

(٤) الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٣٠٤ ، تحقيق عبد العليم الطحاوى . محمد على النجار . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م . العدد ٣.

ولقد أشار " ابن طباطبا العلوي " إلى هذا المسلك في شعر "ابن الجهم" ـ أعني حسن تخلصه، ولطف انتقاله، وتمهيده لفنه مع غيره من القدماء والمحدثين . فقال:

" ومن الأبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك، ولطفوا في صلة ما بعدها بها فصارت غير منقطعة عنها، ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم ؛ لأن مذهب الأوائل في ذلك مذهب واحد[1] "، ثم أورد " ابن طباطبا" أمثلة على ما قاله، ومن بين هذه الأمثله قول "ابن الجهم":

وسارية ترتاد أرضاً تجودها ... شغلت بها عيناً قليلاً هجودها
أتتنابها ريح الصبا وكأنها ... فتاة تُزَجّيها عجوز تقودها
فما برحت بغداد حتي تفجرت ... بأودية ما تستفيق مدودها
فلما قضت حق العراق وأهله ... أتاها من الريح الشمال بريدها
فمرت تفوق الطرف سعياً كأنها ... جنود عبيد الله ولت بنودها
وخلَّتْ أمير المؤمنين مجدلاً ... شهيداً ومن خير الملوك شهيدها [2]

و الأبيات هذه من مقدمة قصيدة طويلة " هي من أجمل شعره "تحدث فيها" "علي بن الجهم" عن سحابة محملة بالخير والنماء، حتى تخلص منها في براعة إلي رثاء " المتوكل " في طريقة عجيبة ومهارة عالية، تسترعى الانتباه، وتستدعى النظر والتأمل " فماذا أراد بوصف السحابة التي أطال الحديث عنها؟، وماذا عني بها في مرثية يتفجع فيها على " المتوكل " الخليفة القتيل؟، وينكر على القتلة الباغين، ويشنع علي رجال الدولة الذين لم يدافعوا عن الخليفة، وكأنه أراد

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ص ١٨٤ تحقيق د/ عبد العزيز بن ناصر المانع – طبعة دار العلوم بالرياض عام ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م
(٢) عيار الشعر ص ١٩٥ ، وتنظر الأبيات في ديوان ابن الجهم ص ١١٣

بالسحابة المنهلة بالمطر والعطاء " أيام المتوكل " التي كانت برخائها ويسرها كالغيث، ثم مرت مر السحاب [١] وبهذا يتضح أن الشاعر جعل من تلطفه وحسن تخلصه في قصائده منهجاً انتهجه وسار عليه وعرف به، وهو دليل ينهض على أنه شاعر مقتدر "يضع الأشياء في مواضعها، ويعني ما يقول، ولا يرسل الكلام جزافاً[٢]"، بل ويتخلص في حِرَفية منقطعة النظير من معنى إلي آخر " فأحسن الشعر ما ينتظم فيه القول انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله...وكذلك أحسنه ما يكون خروجه من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً حتى تخرج القصيدة وكأنها مفرغة إفراغاً [٣] ".

الأمر الثاني : جعله الغزل في مقدمة المديح:

وهو فى هذا الأمر ليس بدعاً ممن سبقوه من الشعراء إذ أن استهلالهم بالغزل في قصائدهم استهلال فني بارع كما يقول "ابن قتيبة"؛لأن الشاعر في هذا يتوجه إلى السامعين في بداية قصيدته بحديث عن شعور مشترك بينه وبينهم.

يقول ابن قتيبة:

"وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن[٤] والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها...ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد،وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجود،

(١) ديوان على بن الجهم ص ١١٣.
(٢) السابق ص ٣٨.
(٣) ينظر في هذا مفصلاً: عيار الشعر ص ٢١٣.
(٤) الدمن :آثار الناس بعد رحيلهم.

ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ؛لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء[١]"

يضاف إلى ذلك أن مزية الغزل سببها حب الجمال والحياة، وكلما كان نصيب المرء من حب الجمال والحياة أوفر كان نصيبه من حب الحياة أعظم، وحب الحياة والجمال من العوامل الاجتماعية القوية التي تزجي الأمم إلي التفوق والاستعلاء. [٢]

هذه الأسباب على وجه العموم، وهي تشمل كل قصيدة بدأها صاحبها بالغزل، أما عن الأسباب التي تخص شاعرنا "ابن الجهم"فإنه يضاف إلي ما سبق : أن الشاعر أراد أن يثبت قدمه في هذا المجال، وأن يخط لنفسه طريقاً يصل قارئ شعره من خلاله وعلى رأسهم " المتوكل" إلي قناعة بأن "ابن الجهم" تملك ذروة الرقة والعذوبة والبيان، فهو بشهادة النقاد له : شاعر مطبوع عذب الألفاظ سهل الكلام[٣]، لاسيما وأنه قد أقام غزله على لغة الحوار، متأثراً في هذه اللغة الحوارية الساحرة بعمر بن أبي ربيعة، ولا غرو في هذه العذوبة عند "ابن الجهم" والتي جعلت المتوكل يقول عند سماعها من خلال قصيدته هذه "كاد أن يذوب رقة" وهو الذي كان من قبل يشكو من خشونته وكزازة طبعه، ولكنه بعد أن سكن " الرصافة" برقة هوائها وطيب نسيمها رق طبعه، وسمحت قريحته، ولانت حواشيه، وفاضت معانيه، ودلل على كل هذا عملاً وفعلاً وقولاً مسطراً، وآخر منظوماً مدبجاً، وعلى رأس كل هذا قصيدته التي بين أيدينا "الرصافية" تلك التي ابتدأها بالغزل الرقيق، متسللاً من خلاله بعد رحلة طويلة

(١) ينظر:الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ص ٢٠ ، حققه وضبط نصبه ووضع حواشية : مفيد قميحة ، أ/محمد الضناوي – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الاولي ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م منشورات محمد علي بيضون.

(٢) الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر ١٨٥٠م – ١٩٦٧م من مقدمة الكتاب رقم (ب) د/سعد دعبيس – الطبعة الثانية ١٩٧٩م طبعة دار النهضه بالقاهرة

(٣) الإبانة عن سرقات المتنبي: لأبي سعيد محمد بن أحمد العميدي ص ٢٠٩ في ترجمته عن الشاعر "ابن الجهم " تقديم وتحقيق وشرح إبراهيم الدسوقي البساطى – طبعة دار المعارف بمصر.

معه إلى مدح "المتوكل " وكأنه في هذه الرحلة الغزلية الطويلة في تلك القصيدة والتي وصف فيها لوعته وحبه، وصدود الغانيات عنه، وتمنعهن عن وصاله، يريد أن يستميل بكل هذه المعاناة التي عاناها قلب" المتوكل" متخذاً من وضعه المأساوي هذا – إن صح التعبير – بابا يلج من خلاله إلى قلب الخليفة، ليخفف عنه مصابه، ويعوضه بتقريبه الشاعر ما فقده الشاعر من قبل ذلك وقد خسر كل شيء عن محبوبته، راجياً بعد خسارته هذه أن يعتاض عنها بما يجده عند " الخليفة المتوكل" من عظيم القول وثمين الهبات، وإلا فما الفرق بين مَنْ تغزل فيها "ابن الجهم" وشبب بها فمنعته وزجرته، وبخلت وصدت، وبين مَنْ مدحه ودبج فيه دُرَرَهُ، وأشاد صروح مجده فمنعه وأبعده؟!!

بيد أن "ابن الجهم" قد نجح في استمالة قلب الخليفة، واستطاع أن ينفذ " بغرر غزله قبل مديحه " إلي سويداء فؤاده، فوصفه الخليفة بالرقة، وأدناه منه، بعد أن سمع رقيق غزله، وبوح مشاعره، وفيض هواه. وهو في هذا الباب أعني "شعر الغزل" لا يبارى، وشعره فيه من عيون الشعر، وذلك لأنه " كان يشهد مجالس الخلفاء، وما فيها من لهو وغناء، كما أنه كان بطبعه ميالاً للتمتع بالجمال على اختلاف مظاهره، وساعده علي ذلك وسامة وجهه، وذلاقة لسانه، وحسن بيانه، وكونه من الطبقة العليا، ثم اختصاصه بالمتوكل ومنادمته له نحواً من سبع سنين [١]."

وعلي الجملة فإن غزل "ابن الجهم" يكثر فيه صاحبه الحوار بينه وبين النساء، مما يعطيه خصوصية وتفردا يجعله يتغنى به ويرغب فيه، ويتنافس به الحسان، يكتبنه على راحهن وأكفهن وأقدامهن، وعلى الحجال والكلل وأطباق الورد[٢]."

وقبل كل هذا ينقشنه في قلوبهن، ويسطرنه في أفئدتهن، ويجعلن منه غذاء للروح، وسلوى للعشق، وباباً للغرام.

(١) ينظر ديوان علي بن الجهم ص ٤٠،٤١
(٢) السابق ص ٤١

"الفصل الثالث"
"القيم التعبيرية والفنية في مدح المتوكل من "القصيدة الرصافية"

"الفصل الثالث"

"القيم التعبيرية والفنية في مدح المتوكل من "القصيدة الرصافية"

يقول ابن رشيق في عمدته تحت عنوان:" علي بن الجهم" يصف ما دعاه لقول الشعر" قال:" وقال علي بن الجهم في مدح المتوكل[١]:

وما الشعر مما أستظل بظله ولا زادني قدراً ولا حط من قدري

ثم قال:

ولكن إحسان الخليفة جعفر دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر

فذكر أنه لا يستظل بظل الشعر، أى لا يتكسب به، وأنه لم يزده قدراً ؛ لأنه كان نابه الذكر قبل عمل الشعر، ثم قال : " ولاحط من قدري" فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر، يقول : " ليس الشعر ضعة في نفسه، ولا صنعته فيمن دون الخليفة، وما كفاه ذلك حتى جعل نفسه بإزاء الخليفة، بل مكافئاً له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به، ولم يرض أن يجعل نفسه راغباً ولا مجتدياً. [٢]

وهو من تلك الوجهة، كأنما أسس لمن جاء بعده طريقاً، واختط لهم منهجاً في كيفية مخاطبة الأمراء والخلفاء، ممن أنفوا أن يذلوا أو يظهروا خضوعاً بين يدي ممدوحيهم، من أمثال "المتنبي"الذي وقف إزا الأمير "سيف الدولة" رأساً

(١) المتوكل هو الخليفة جعفر بن محمد بن هارون ، لقبه "أحمد بن أبي دؤاد" "المتوكل على الله " بويع بالخلافة بعد موت أخيه الواثق عام اثنين وثلاثين ومائتين وهو ابن سبع وعشرين سنة ، وقتل وهو ابن إحدى وأربعين سنة ينظر : مروج الذهب للمسعودي ، ج ٤، ص ١١٨ بتحقيق : مصطفى السيد بن أبي ليلى.

(٢) العمدة ، ج ١ ص٤٢.

برأس وأبى أن يقبل الأرض بين يديه، وأن ينشده الشعر واقفاً إن كان الأمير واقفاً، أو قاعداً إذا كان قاعداً، ولا ينسى نفسه في جُل قصائده لسيف الدولة أو غيره أن يشيد بها، ويتفاخر بفنه، ويتيه بشعره، ويجعل عطاء الأمير أو الممدوح مهما بلغ قدره دون شعره ؛ لأن العطاء يفنى، والشعر خالد باقٍ، بيد أن "ابن الجهم" كان في هذا الأمر أخف وطأة، وألطف مدخلاً وأقل طموحاً من " المتنبي" الذي بلغ من طموحة وتيهه وتطلعه أنه كاد أن ينزع ما في أيدي ممدوحيه من كثرة فخره بذاته، أو يضن عليهم بما هم فيه من الأبهة والمكانة والملك.(١)

أما "ابن الجهم "فمع ما كان يفخر به، بنفسه ونسبه ودينه وعلمه وشجاعته وكرمه ووسامته، واتصال نسبه بقريش، إلاَّ أن فخره هذا ليس فيه تعال تافه أو تبجح فارغ، ولكنه نافذة يطل من خلالها ممدوحوه على ما كان يتمتع به الشاعر من الصفات السابقة والنسب العريق، وليقيم أيضا مناظرة نفسية بين مَنْ مدح الخليفة استجداء وتملقاً،وبين من أشاد به حباً ورغبة في رفعته، وبون بينهما شاسع وفرق كبير " فماء ولا كصداء"(٢)، " ومرعىً ولا كالسعدان"(٣)(٤)..

وبعد هذه المناقشات وتلك المطارحات ندلف إلى مدح "ابن الجهم" للخليفة "المتوكل" والذي سلك الشاعر فيه عدة مسالك، وجعل له عدة محاور، قد ارتضيت علي وضعها تحت العناوين الآتية:

(١) مثلما فعل مع " كافور الإخشيدى" لاسيما بعد أن ساءت العلاقة بينهما وشَعُر " كافور " بخطر المتنبي ومدي تطلعه إلى ما في يده من ملك وجاه. ينظر في هذا الأمر مفصلاً : الحكمة في شعر المتنبي ص ٢٥٥، ٢٥٦د/ يسرى محمد سلامة – طبعة دار المعارف١٩٨٢.

(٢) مجمع الأمثال، ج٣، ص٣٢٥

(٣) مجمع الأمثال، ج ٣، ص ٢٢٣

(٤) مثلاً يضربان للشئ يتشابه مع غيرة ، ولكن يدرك بينهما بون شاسع قال الخليل ومنهم من يضم الصاد فيقول: صُدى ، قال : وهي ركية ليس عند العرب أعذب منها وسميت صداء ؛ لأنها تصد مَنْ شرب منها عن غيرها ، وأما السعدان فهو نبت متميز تغزو عليه الألبان . ينظر : سمط اللآلئ المجلد الأول ص ٣٦٤ للوزير أبي عبيد العكبري ، صححه وحققه عبد العزيز الميمني طبعة ٢٠٠٩م سلسلة الذخائر

المحور الأول : إحسان المتوكل وصنائع معروفه:

يقول "ابن الجهم" بعد شعر طويل تسلل بعده وتخلص إلى مدح الخليفة قائلاً :

ولكـــن إحـــسان الخليفـــة جعفـــر دعاني إلى ما قلت فيه من الشعر
فسار مسير الشمس في كل بلدةٍ وهب هبوب الريح في البر و البحر
ولو جل عن شكر الصنيعة منعم لجل أمير المؤمنين عن الشكر (١)

وانطلاق الشاعر في مدحه للخليفة من نبع إحسان الخليفة إليه يدل على سعة عطاء الخليفة، وقوة صلته بالشاعر ؛ إذ الإحسان صفة جامعة لألوان العطاءات المادي منها والمعنوي، وفي التعبير به عموم يحمد للخليفة، ومن ثَم قابله الشاعر عطاء بعطاء وإحساناً بإحسان، فهشّ له وبشّ، وانطلق في الآفاق مغرداً يشدو بأعذب الألحان في حب خالص وصدق ملموس.

ولنتأمل لفظة " دعاني" التي جسدت الإحسان، بل جعلته شخصاً يحفز الشاعر نحو القول ويدفعه راغباً إلى الثناء، إضافة إلى ما في هذه اللفظة من خلابة وجمال، مع بوحها بالكرم، ونشرها الرغبة في العطاء دونما إجبار أو تكلف.

ولذا سارت مدائحه في "المتوكل" مسير الشمس سعة وشهرة، وهبت هبوب الرياح في البر والبحر سرعة وشمولاً.

يقول المسعودي في مروج الذهب يصف أيام المتوكل :

" وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها، ورفاهية العيش بها، وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها، أيام سراء لا ضراء...ولم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل (٢)، لذا فمدح "ابن الجهم" له كأنما يصف واقعاً ويوضح رغداً معاشاً ورفاهية ملموسة محسوسة.

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٥.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى ،ج٤ ،ص ١١٨

ويبلغ الشاعر غاية القول، ويتسنم ذروة البلاغة عندما يفترض هذه الفرضية:

ولوجل عن شكر الصنيعة منعم لجل أميرُ المؤمنين عن الشكر

إيذاناً برفعته، وإقراراً بمنزلته، وإيماء بمكانته وسؤدده، ثم بعد ذلك كناية بليغة عن كثرة عطايا المتوكل لابن الجهم، والذي معها لا يكاد شكره العميم يفي بجزيل العطايا التي انهالت عليه، سواء المعنوي منها أو العيني، وأحسب أن هذا التلطف الذي اكتنف هذا البيت كاد أن يتفرد به "ابن الجهم" عن غيره من الشعراء ؛لأنه قطع معه كل ثناء، وأوفى به وزاد على كل مدح بفرضيته هذه " فلو تعاظم منعم عن شكر، وتعالى عن ثناء، لجل أمير المؤمنين عن الشكر والثناء".وهذا من أبلغ الثناء على الخليفة، إن لم تفسده آفةُ التجاوز وجائحة الغلو الذي خففه لفظة "لو" في صدر البيت، ناثرة على المعنى طرافة وابتكاراً ؛لأن الشاعر أخبر عن طريق الشرط بأن الخليفة مستغن عن الثناء، ولا يحتاج إلى الإطراء، ولكن الإنسانية اقتضت أن يقابل صاحب العطاء بالثناء، وذوي الأيدي بموفور الشكر، ومن ثم دبج "ابن الجهم" ثناءه ونظم مديحه وسبك درره ونشر غرره.

المحور الثاني : شمائل المتوكل وصفاته الحسية والمعنوية :

ولقد أخذ "ابن الجهم" يعدد فيه صفات " المتوكل" ويذكر أياديه، ويجسد مزاياه، ويشرح خفاياه قائلاً:

فتى تسعد الأبصار في حسن وجهه ... كما تسعد الأيدي بنائله الغمر
به سلم الإسلام من كل ملحدٍ ... وحل بأهل الزيغ قاصمة الظهر
إمام هدى جلى عن الدين بعدما ... تعادت على أشياعه شيع الكفر
وفرق شمل المال جود يمينه ... على أنه أبقى له أجمل الذكر
إذا ما أجال الرأي أدرك فكره ... غرائب لم تخطر ببال ولا فكر
ولا يجمع الأموال إلا لبذلها ... كما لا يساق الهدي إلا إلى النحر (١)

وفي هذا المحور افتتح"ابن الجهم" صفات "المتوكل" بالفتوة وهي لفظة تشي بالقوة والرجولة والشجاعة والحيوية والنشاط، وكل ذلك مرشح ومقصود من وراء هذه الكلمة التي جعلها الشاعر منطلقاً إلى إضفاء الصفات الجمالية والحربية على الخليفة :

فمن الأولى: فإن الأبصار تسعد في حسن وجهه وجميل محياه وغرة جبينه إذا ما نظرتْ إلى ملامح وجهه أبصرتْ وجهها غارقاً في سنا محياه وإشراقة صفحته، وأحسب هذا الفهم قد أوضح السر من وراء التعبير بقوله : "في حسن وجهه" ولم يقل :"من حسن وجهه"، وكأن النظر في وجهه سبيل إلى إسعاد النفس، وإزكاء النظر ومسرة الأبصار، ومثل ذلك الإسعاد إسعاد الأيدي بجود يمينه، ووفرة عطاياه وإغداق راحته وسعة نواله، الذي عم وشمل وذاع، وانتشر انتشار الماء في الأرض الجدباء، وهو ما حشده الشاعر في كلمة واحدة شاعرة باهرة " بنائله الغمر" معبرة ريانة، تنساب في النطق، وتنماح على اللسان، كما تنساب راحة الخليفة بالعطاء انسياب الماء، وتنهمر انهمار الرواء في الأرض الخلاء.

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٥

أما عن صفات الحرب والبأس والشجاعة وإلقاء الرعب في قلوب الملحدين فإنه:

بـه سـلم الإسـلام مـن كـل ملحـد وحـل بأهـل الزيـغ قاصـمة الظهـر
إمـام هـدى جَلَّـى عـن الـدين بعـدما تعـادت علـى أشـياعه شـيع الكفـر

ولنحط رحال التأمل، وننشر أشرعة التذوق حول هذه الافتتاحية الرائعة "بـه سلم الإسلام...." لنعلم كيف جعل "ابن الجهم" سلامة الإسلام في وجود المتوكل " ونقاء ساحته من كل ملحد مرتبطاً بهذا الذي ينفي عن معدنه النقي أهل الزيغ، ويحل بهم قاصمة الظهر، ومن هم على شاكلتهم من أهل الهوى وجماعات الكفر.

غير أن هذا الادعاء – الذي جعله "ابن الجهم" تاجاً على جبين " المتوكل " يأتلق ما بقيت الدنيا – أراه يخفت ضوءه، ويخبو نوره أمام وهج " المتنبي" وسنا برقه . الذى يذهب بالأبصار . في مدحه سيف الدولة (من هذا الوادي) في قوله :

ألا أيهـا السـيف الـذي لـيس مغمـداً ولا فيــه مرتــاب ولا منــه عاصــم
هنيئـاً لـضرب الهـام والمجـد والعـلا وراجيــك والإســلام أنــك ســالم[1]

ونشعر بعلو نبرة " المتنبي" واحتدامها بجعله سيف الدولة سيفاً مسلولاً، لا يوضع في غمده، ولا يرتاب في فتكه مرتاب، وليس منه عاصم، ثم هنأه بالمجد والعلا بعد ضربه الهام. وكل هذه العبارات محتشدة بالمعاني متزاحمة في الدلالات مجسدة للقوة المسيطرة التي توفرت لسيف الدولة.

(١) شرح ديوان المتنبي المجلد الثاني القسم الرابع، ص ٨١ – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الأولي ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م منشورات محمد علي بيضون .

ثم لنقرأ هذه الجملة الباهرة التي جاءت بلغة القصر قصداً : " والإسلام أنك سالم " قاصراً المتنبي سلامة الإسلام ووجوده وقوة دولته على سلامة ووجود سيف الدولة، والعكس بالعكس وهذا من قبيل الادعاء والمبالغة، وجملة المتنبي هذه أقوى وأكمل وأدق وأظهر من قول "ابن الجهم" " به سلم الإسلام" ؛ لأن أبا الطيب – الذي ملأ الدنيا وشغل الناس – وَقَّفَ الإسلام وجوداً وسلامة وانتشاراً وهيمنة على سلامة "سيف الدولة"، مستغلاً – في حنكة أدبية – أسلوب القصر الذي يُضفي على المعني بهاء، وعلى الأسلوب رونقاً، إضافة إلى أنه أداة لتمكين المعنى في القلب، واستقراره في النفس، ودورانه في الفكر والخاطر.

يضاف إلى هذه الموازنة بين الشاعرين أن "ابن الجهم" وجه حرصه بأسلوب الغائب، وجاء بممدوحه متوارياً خلف ألفاظه وكأنه القمر يتوارى خلف السحب، أو الشمس تلتحف غلالة الغيم، بينما "المتنبي" يهدر هدر البحر، وينصب انصباب الباشق على " سيف الدولة " بأسلوب المخاطب، مستعملاً أداة التنبيه "ألا" إيذاناً بأهمية ما يجاورها أو يأتي إثرها، جاعلاً "أى" وصلاً لنداء "السيف" حقيقة ومجازاً على حد سواء.

كما يضاف إلى كفة "أبي الطيب" أيضا، اهتداؤه في أبياته السابقة إلى جمل مشعة محتشدة بالمعاني والظلال.

من ذلك قوله في وصف سيف الدولة " : "ليس مغمداً – ولا فيه مرتاب – ولا منه عاصم " فهو أبداً سيف مسلول سله الله على أعداء الدين، ولا يرتاب فيه مرتاب، لمضائه ونفاذه، ولا منه عاصم ؛ لأنه يطال كل الخارجين، ويصل إلى أوكار المتمردين ولو كانوا في قلل الجبال، أو مواطن السحاب، وكأنه طوفان " نوح" –عليه السلام– الذي طغى ماؤه، وأتى على كل آبق، ومنهم ولده الذي قال:

"سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...."(١) وقد استدعى كل هذه المعاني والأحداث جملة "ولا منه عاصم" والتي أحضرت في مشاعرنا ونفوسنا "قصة الطوفان"، ورسمت في أذهاننا ما فيها من هلع وخوف وقدرة مطلقة.

ونعود إلى "ابن الجهم" ثانية، لنعدد معه شمائل " المتوكل " وعلى رأسها " الكرم" يقول :

وفرق شمل المال جود يمينه على أنه أبقى له أجمل الذكر(٢)

إلحاقاً بقوله قبل ذلك : "كما تسعد الأيدي بنائله الغمر"

لكنه هنا يسلط ضوءه الشعري على ثمرة الجود، وما يحصل له من حسن السيرة من إنفاقه المال وتفريقه بيمينه شمله، وتسليطه على هلكته في وجوه الخير والبر والإحسان المطلق، وليت "ابن الجهم" سكت عند ذلك، ولكنه آثر أن يمن على الخليفة، أو ينبهه إلى جزاء الإنفاق وثمنه، ممثلاً في الذكر الجميل الذي يذكر به الخليفة فيشكر، وليس ذلك بخافٍ على الممدوح بل هو معلوم مذكور، وكان الأولى – في رأيي – أن يعدل إلى شئ آخر، ولا يبادل الخليفة يداً بيد وجزاء بعطاء، ولكن الشاعر ربما أراد أن يقابل تفريق المال وهلكته في الخير بإبقاء الذكر وديمومته، وكأنه يستمنح بذلك عطايا " الخلفية"، ويستنفر أفراس جوده، ويستفتح أبواب بذله.

بيد أنه في مثل هذا المقام كان " أبو نواس" أرحب يداً وأوسع خيالاً عندما قال في" خصيب مصر":

فما جازه جود و لا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير(٣)

(١) جزء من آية كريمة في سورة "هود" رقم (٤٣)
(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٥
(٣) شرح ديوان أبي نواس الجزء الأول ص ٥٢٩ – طبعة دار الكتاب اللبناني – منشورات الشركة العالمية للكتاب عام ١٩٨٧م ضبط وشرح إيليا الحاوى .

وكان " المتنبي" ألطف مطلباً، وأجمل مدخلاً من "ابن الجهم " " وأبي نواس" عندما قال مخاطباً "سيف الدولة" :

لك الحمد في الدر الذي لي لفظه فإنك معطيه وإني ناظم(١)

حيث جعل " المتنبي" مديحه " سيف الدولة" درراً، لكنه – بلطفه – أراد أن يشرك " سيف الدولة" في هذا الشرف ؛ إرضاء لغرور الأمير، ومراعاة لدخائل نفسه، فجعل هذا الدر المنظوم مقسماً بينهما : معانيه ووحيه تستقى من أمجاد " سيف الدولة" وجود عطائه وسعة كرمه، بينما ألفاظ هذا الدر المنظومة في سلك شعري من فعل المتنبي، وغزل لسانه ونسج شاعريته، ولم أر – في رأيي – باباً أرحب في إدخال السرور علي الممدوح مثل هذا الباب الذي ولج منه " المتنبي" إلى حاجته بلطف ورفق، مخاطباً نفسية الأمير، ومراعياً مكانته، وكأنه يتكلم بلسان حاله قائلاً:

كالبحر يمطره السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه

وإن كان " أبو الطيب " في مواضع أخرى يجمح كما تجمح الخيل، فيعلي "الأنا"، ويشهر سيوف الإباء، ويجعل نفسه إزاء الأمير.

ولا يزال "ابن الجهم" يعدد صفات " المتوكل" فيسمه بالنظرة الثاقبة، والرأي الرشيد، بعد أن وصفه بالفروسية، وقوة الشكيمة قائلاً:

إذا ما أجال الرأي أدرك فكره غرائب لم تخطر ببال ولا فكر

وكأن "ابن الجهم" أراد – في ذكاء– أن يجمع للمتوكل بين صفتي " الفروسية " بمعني جلاد السيف و" قوة الحجة" ونفاذ الرأي والجدال بالبرهان ؛

(١) شرح ديوان المتنبي المجلد الثاني – القسم الرابع ص ٨٠ – الطبعة الأولي ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م

لتكتمل صورة الممدوح،وليمسك – في رحابة – بطرفي الفروسية في نطاقها الواسع.

يقول الإمام ابن القيم :

"ولما كان الجلاد بالسيف والسنان، والجدال بالحجة والبرهان كالأخوين الشقيقين والقرينين المتصاحبين، كانت أحكام كل منها شبيهة بأحكام الآخر، ومستفادة منها، فالإصابة في الرمي والنضال كالإصابة في الحجة والمقال...وجواب القرن عند دخوله عليك، كجواب الخصم عما يورده إليك فالفروسية فروسيتان، فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان[1]"، يضاف إلى ذلك كله بأن " المتوكل " يتمتع بعقل ورأي سديد، ونظر ثاقب، وفكر متوقد،لاسيما عندما يقلب الرأي في رأسه، ويعرضه علي مدارك فكره ومراكز عقله، يأتي بالبديع النادر الذي لم يخطر ببال، ولم يرد علي ذهن بأية حال، غير أني آخذ على الشاعر إيراده كلمة " غرائب" في سياق مدح الخليفة، ففكر يأتي بالغريب فكر فيه قول وأخذ ورد، وليت "ابن الجهم " استبدلها بكلمة " بدائع، أو فرائد، أو روائع، أو شوارد" وكلها على الوزن سائره، وللمقصود مؤدية وزائدة ؛ لأن كلمة " غرائب " في ذاتها تشير إلى غير المألوف أو الآبد النافر ومنه : غريب اللغة، وغريب الوحش" وعلى أية حال فإن صدر البيت الذي معنا يشدهنى جمالاً وترقرقاً ومائية في "إذا"ثم في "ما" التي تعطي فسحة زمنية، وتسمح بوقت واسع لتقليب الرأي، وما أملحها وأجملها جملة " أجال الرأي" أي أعمله وحركة وقبله بإرادة منه وقصد، وفرق كبير بين "أجال" و"جال" فالأولى فاعلها "الخليفة" وهي تشي بالإرادة وإعمال العقل وتوجيهه نحو المراد بخلاف "جال" التي اعتبرنا فاعلها الرأي نفسه.

(١) الفروسية للإمام ابن القيم الجوزية المتوفي ٧٥١ هـ، ص ١٨، ١٩ ، عرف الكتاب وترجم للمؤلف السيد عزت العطار – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان.

ويعود "ابن الجهم" إلى مركز المديح ونقطة انطلاقه التي يرجع كل مرة إليها "الكرم" الذي يدور عليها هذا المحور فيقول عن الخليفة بعد أن وصف ثاقب رأيه وبعد نظره:

ولا يجمـــع الأمـــوال إلا لبـــذلها كما لا يساق الهدي إلا إلى النحر

وإن أعجب فعجب من "ابن الجهم"،كيف اتسقت له هذه الصورة،وكيف جمع بين أجزائها في قرن واحد وإن كان البون شاسعاً، والبعد شديداً بين جمع الأموال لبذلها وسوق الهدي لنحره، لكن نصفة للشاعر، ونصرة لقصده، علينا أن نوضح مراده، ونوجه قصده، وهو أنه لم يرد مطلق التشبيه، بقدر ما أراد الذي يُرتب عليه، أعني الجمع بين المشبه والمشبه به، وهو وجه الشبه والمعنى الجامع بين الطرفين في الشطرين وهو هنا : "مطلق حبس الشئ على غاية واحدة، وقصره على هدف بعينه لا يتعداه إلى غيره في كل."

فكما أن الهدي لا يساق في بطحاء مكة إلا لأجل النحر، كذلك جمع الخليفة أمواله لا يكون إلا لأجل البذل والعطاء.

وبهذا تقبل الصورة ويتشابه طرفاها بوجود وشائج تربط بين أجزائها، إضافة إلي وشيجة "القصر" الذي اكتنف الشطرين بـ"لا"وإلا"،جاعلاً المعنى المراد مقصوراً علي الغاية المقصودة، ولا شك أن "القصر" أمكن المعنى في النفس، وأبرزه في الفكر، وصوره في الذهن، لاسيما وقد استعان الشاعر بالتشبيه كجناح آخر، ليجلي مراده ويحقق قصده.

المحور الثالث: عجز الشعراء عن أن يبلغوا مدحه أو يدركوا بالتشبيه شأوه.

يقول "ابن الجهم" :

ومـــا غايـــة المـــثني عليـــه لـــو أنـــه زهـير والأعـشى وامـرؤ القـيس مـن حجـر
ألـــيس إذا مـــا قـــاس بالـــشمس وجهـــه وبالبـــدر قلنـــا خـــاف للـــشمس والبـــدر
وإن قـــال إن البحـــر والقطـــر أشـــبها نـــداه فقـــد أثنـــى علـــى البحـــر والقطـــر
ولـــو قرنـــت بـــالبحر ســـبعة أبحـــر لمـــا أدركـــت جـــدوى أنامـلـــه العـــشر
وإن ذكـــر المجـــد القـــديم فإنمـــا يقـــص علينـــا مـــا تنـــزل في الزبـــر (١)

وفي هذا المحور يوضح "ابن الجهم" منزلة " المتوكل" ومكانته العالية التي مهما حاول الشعراء أن يجسدوا أو يوضحوا آثارها فلن يستطيعوا أن يصلوا إلى غايتها، وإن أتوا من البيان أعلاه، ودبجوا من الأشعار أبلغها، ولو كان على رأسهم أمراء القول وأساطين البيان من أمثال "زهير بن أبي سلمى ، في صدق قولـه، وسـهولة لفظـه، وانـسيابية معانيـه، " وميمـون بـن قـيس" الأعـشى الكبيـر " صناجة العرب "في هيمنته على الأسماع وأنغامه وجلبته، ورقة مداخله في أبواب المديح، و"امرئ القيس" أمير الشعر ورائده، رأس الطبقة الأولى وأحسن الشعراء نادرة وأسبقهم بادرة.

وجدير بالقول أن "ابن الجهم قد ساق إلينا عجز هؤلاء الشعراء وغيرهم عن أن يدركوا شأو الخليفة جملة، ثم بعد ذلك أخذ يفصل القول ويدلل على المراد، ويوضح مدى إمكانية الخليفة، بأساليب القول وطرائق البيان قائلاً :

ألـيس إذا مـا قـاس بالـشمس وجهـه وبالبـدر قلنـا خـاف للـشمس والبـدر

(١) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٥

لأن الشاعر استقل أن يقاس وجه الخليفة بالشمس والقمر، أو يلحق بهما، وذلك على اعتبار أن وجه الخليفة أكمل في الإشراق، وأتم في البهاء والجمال من النيرين "الشمس والقمر".

وجمال البيت يكمن في سوق هذا الادعاء في أسلوب الاستفهام التقريري في سياقه وكأنه دلالة على أن هذا الأمر من المسلمات، وأن الفرق جد واضح في بيان البون الشاسع بين جمال وجه الخليفة وجمال النيرين.

وعلى هذا فإن "ابن الجهم"أراد أن يقول أنه ينبغي أن يشبه الشمس والقمر بوجه الخليفة لا العكس، لأن الصفة في المشبه به هنا أتم وأجمل وأكمل منها في المشبه وهذا هو السر من وراء قلب التشبيه.

ومافتئ "ابن الجهم" يفتق آيات البيان، ويفتح أكمامه بهذا الأسلوب الرائق والتخييل المعبر قائلاً:

وإن قال إن البحر والقطر أشبها نداه فقد أثنى على البحر والقطر

وأحسب أن هذا البيت من أجمل ما مدح به "المتوكل" ؛ لأن الشاعر لم يكتف بأن يلحق البحر والقطر بعطاء الخليفة ونداه – مع أن المتعارف عليه أن يلحق عطاء الخليفة في سعته وكثرته وتدفقه بالبحر والقطر – ولم يقنع الشاعر بهذا، ولكنه أوغل في المدح، وحلّق في الخيال، وآثر المجاز عندما أخبر أن إلحاق البحر والقطر بندى الخليفة وكرمه إنما يعد ثناء عليها، وشرفاً لهما، في أن يلحق كلاهما "البحر والقطر" بسيب عطاء الخليفة.

ووجه الثناء هنا على اعتبار أن ثمة علاقة قائمة وجامعة بين المشبه " البحر والقطر" والمشبه به " ندى الخليفة" وكون هذه العلاقة موجودة، هو في حد ذاته شرف وثناء علي " البحر والقطر" ؛لأن الأصل من وجهة نظر "ابن الجهم" ألاَّ يكون لنداه نظير أو شبيه، حتى ولو كان الشبيه والنظير البحر والسحاب اللذين وضعا للدلالة على الكرم، والتعبير بالمجاز والكناية عن الفيض والعطاء الذي لا يضارع.

وليس بحراً واحداً الذي لا يستطيع أن يلحق أو يساير أو يماشي ركب عطاء الممدوح، أو يدرك غاية نداه، وإنما لو ضم إليه أو قرنت به سبعة أبحر ما استطاعت مجتمعةً لحاق جوده، وإدراك كرمه وفيض أنامله:

ولـو قرنـت بـالبحر سـبعة أبحـر لمـا أدركـتْ جـدوى أنامـلـه العـشر

والبيت يحمل في ثناياه دلالة معنى قوله تعالى – وله المثل الأعلى – " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [1] "وهي مبالغة في حق المتوكل " تحمل معنى الكرم الدافق والعطاء الدائم ؛ لأن الشاعر لما قرن البحر والقطر بندى الخليفة، تُوهم من هذا التشبيه أنهما يشبهان نداه أو يقار بان خطا عطاه، ولكن هيهات أن يلحقا رياح كرمه، أو يصلا إلى سحائب جوده، ولو قرنت بهذا البحر سبعة أبحر لما أدركت تلك البحور الشاسعة ذات العطاءات الواسعة جدوى أنامله، ولا ندى بطون راحه. [2]

ولا يزال "ابن الجهم" غارقاً إلى حقويه في بحور مدح "المتوكل"، مسخراً كل طاقاته الشعرية وملكاته الخيالية في تصوير عطاياه ومنحه، جاعلاً له في سجل الأمجاد القديمة اسماً ورسماً قائلاً:

وإن ذكـــر المجـــد القـــديم فإنمـــا يقـص علينـا مـا تنـزل فـي الزبـر

ونلاحظ من خلال الصورتين السابقتين في ذكر أمجاد الخليفة أن الشاعر صبغهما بصبغة دينية، وأضفى عليهما شيات من ثقافته وموروثه وحفظة، وذلك من مثل استدعائه للآية الكريمة من سورة " لقمان "،واستئناسه بقص " ما تنزل في الزبر " من أمجاد وأحداث. ويكفي "المتوكل" ما قاله "إبراهيم بن العباس" فيه :

(١) سورة لقمان آية (٢٧)
(٢) ينظر مواقف كثيرة من كرم المتوكل في مروج الذهب للمسعودي ، ج٤،ص٩٦

مـــا واحـــد مـــن واحـــد أولـــى بفـــضل أو مُـــروّهْ
ممـــن أبـــوه وجـــده بـــين الخلافـــة والنبـــوْه(١)

المحور الرابع : عطاء الله للخليفة وبيان منزلة بني العباس المعنوية والمكانية ويشمل هذا المحور أمرين:

الأمر الأول : عطاء الله للخليفة وبيان منزلة بنى العباس المعنوية : يقول "ابن الجهم":

فـإن كـان أمـسى جعفـر متـوكلاً على الله في سـر الأمـور وفي الجهـر
لقـد شـكر الله الخليفـة جعفـراً وأعطـاه ممـا لا يبيـد علـى الـدهر (٢)
وولى عهـود المـسلمين ثلاثـة يحيـون بالتأييـد والعـز والنـصر (٣)
أغـير كتـاب الله تبغـون شـاهداً لكـم يـا بـني العبـاس والمجـد والفخـر
كفـاكم بـأن الله فـوض أمـره إلـيكم وأوحـى أن أطيعـوا أولـي الأمـر
ولم يـسأل النـاس الـنبي محمـد سـوى ود ذي القربـى القريبـة مـن أجـر
ولـن يقبـل الإيمـان إلا بحـبكم وهـل يقبـل الله الـصلاة بـلا طهـر(٤)

لقد أفاض"ابن الجهم" في هذا المحور من فيضه على"المتوكل" وخلع عليه هالة من الوقار والجلال، وألبسه ربقة المؤمن الذي يفوض الأمر كله لله،

(١) الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ج١٠ ص ٦٣ وأخبار المتوكل وآثاره في الكرم والمروءة منتشرة في كثير من الأخبار فقد كان جواداً ممدحاً محباً للعمران ومن أثاره المتوكلية ببغداد . الأغاني ج١٠ ص٦٣ هامش (١) ويراجع الأعلام لخير الدين الزركلى ج٢ ص ١٢٧.

(٢) شكر الله الخليفة: معناه رضاه عنه ، وتوفيقه للخير والأعمال الصالحة.

(٣) ولاة عهد المتوكل هم : المؤيد والمعتز والمنتصر.

(٤) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٥، ٢٥٦.

ويتوكل عليه في سره وعلانيته، ثم عرج علي ذكر ولاة عهد الخليفة وهم المؤيد والمعتز والمنتصر أبناؤه الذين يحيون بالتأييد والعز والنصر.

ويتوجه الشاعر باستفهام تقريري رائع مخاطبا بني العباس في صورة مشرقة ناصعة لمجدهم المؤثل، وأحقيتهم المدعومة بقربهم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال:

أغيــر كتــاب الله تبغــون شــاهداً لكم يا بني العباس والمجد والفخر

ويستمد"ابن الجهم" شرعية "المتوكل" وولاة عهده من الآيات القرآنية الداعمة والموجبة لطاعة ولاة الأمر، ويعدُّ هذا تفويضاً من الله. سبحانه. وإيذانا بقوله جل وعلا :- "... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [1]، وكأن الشاعر اتخذ من آية الكتاب العزيز، ومن قبس الأنوار المحمدية بناء وسياجاً أحاط به "المتوكل" رهبة لأعدائه، ورغبة للمخلصين له، وذاك يعد أقوى وأدوم الأسلحة التي تدافع عن الخليفة، وتصد عنه كيد الكائدين، كما أنها من أبواب إظهار مناقب الممدوح؛ إذ الحديث عن المناقب من أوسع معاني المديح وأبقاها وأشدها ثراء وانتشاراً.

يقول أبو تمام في وصيته للبحتري: "فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياد، فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه وأَبنْ معالمه، وشرف مقامه، ونضدد المعاني، واحذر المجهول منها [2].

" وهذا ما حدث مع المتوكل "، فلقد كان القوم حول "المتوكل" يظهرون له مناقبه ومحاسنه،"فلقد قال المتوكل يوماً لأبي الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه : " ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب ؟ قال : " وما يقول ولد أبي يا أمير المؤمنين فى رجل افترض الله طاعة بنيه على خلقه، وافترض طاعته على بنيه؟

(١) جزء من آية في سورة النساء رقم (٥٨).
(٢) زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى القزوينى ج ١ ص ١١٣

فأمر له بمائة ألف درهم [١] "، وهذا الفضل، وتلك المناقب التي أجزل "المتوكل " بسبب الإشادة بها العطاء إلى قائلها هي نفسها التي قصدها " علي بن الجهم" في قوله وقد زاد عنها :

كفاكم بأن الله فوض أمره ... إليكم وأوحى أن أطيعوا أولي الأمر
ولم يسأل الناس النبي محمد ... سوى ود ذي القربى القريبة من أجر
ولن يقبل الإيمان إلا بحبكم ... وهل يقبل الله الصلاة بلا طهر (٢)

ويلفتنا في هذه الأبيات أن "ابن الجهم" جعلها قبساً من القرآن والسنة فترجم فيها بعضاً من آي القرآن الكريم وهو قول الله تعالى : "..... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ"[٣] "، وقوله جل شأنه – يخاطب نبيه : "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى"[٤]، وقوله – صلى الله عليه وسلم – :"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله والناس أجمعين" [٥]، وكلها مناقب أراد "ابن الجهم" أن يلحقها بقرابة النبي من آل العباس بن عبد المطلب عم النبي، وأن يتوجهم بها.

"ولقد كان "ابن الجهم" يرفع المتوكل والعباسيين، حتى ليجعلهم فوق الناس علويين وغير علويين وكان لا ينى يمدح " المتوكل" بحب الخير، والرفق بالرعية، وجل مدائحه فيه، وقد كان لا يترك فيه فضلاً لغيرة. [٦]

(١) مروج الذهب للمسعودي ،ج ٢ ،ص ٩٠
(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٦.
(٣) جزء من آية كريمة من سورة النساء رقم (٥٨)
(٤) جزء من آية كريمة من سورة الشورى رقم (٢٣)
(٥) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه كتاب (الإيمان) باب (حلاوة الإيمان) ـ طبعة دار الكتب العلمية ببيروت لبنان . الأولى ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م.
(٦) تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني د/ شوقي ضيف ،ص٢٦٣ بتصرف – طبعة دار المعارف – الطبعة الثانية عشر.

ومن ثم فحرارة الأبيات ملموسة وصدقها بينٌ، ووهجها واضح، نكاد نراه وندركه في قولة : كفاكم" أى حسبكم فخراً ومفخرة، وجاه ومنزلة، وحْىُ الله بطاعتكم وسؤال النبي أجره ممثلاً في حب ذوى القربى، وإخلاص الوداد لهم، إذ الإيمان موكول تمامه وقبوله بحبهم، كما أن الصلاة لا تقبل من غير طهر صاحبها.

وجملة الأبيات تعكس ثقافة الشاعر الدينية، وسعة اطلاعه، ونهجه الذى انتهجه في الدفاع عن العباسيين، موظفاً معارفه كلها في كل ما يذب عنهم كيد الكائدين، ويدفع عن ساحتهم وملكهم كره الكارهين لهم، المناهضين لسياستهم وقيادتهم، مركزاً ضوء شعره على إضفاء هالة من الجلال الديني ومسحة من الهيبة المنبثقة من إلباسهم ثياب جدهم " العباس بن عبد المطلب "، وصبغة ولا يتهم صبغة دينية كما ذكرنا. وكأن "ابن الجهم " أدرك بحسه وحدسه "أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية،وذلك لأنفة نفوسهم، وكونهم أبعد الأمم انقياداً فيما بينهم، وقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا وجدوا الدين بنبوة أو ولاية سهل انقيادهم وأمكن اجتماعهم، لذهاب ما يصد عن ذلك، فيحصل لهم الملك والتغلب، ولا بعد في ذلك، إذهم أسرع الناس قبولاً للحق والهدى ؛ لسلامة طبائعهم من ذميم الأخلاق [1] "، ومن ثم فقد أدرك كل من " المتوكل وابن الجهم" ما للآخر من مكانة ومنزلة عند صاحبه:"الشاعر"بلباقته وحنكته ولطف مداخله، وجلال مدحه للخليفة، و"المتوكل" بيقينه أن مثل هذا الإطراء الكاشف عن نسبه وقرابته وصلته بالأماجد يجعله – بلا شك – في منعة وحماية، ويزكى روح العصبية للوقوف معه، والتعاطف مع ما يقابله من قلاقل ومعوقات ؛ولذا فقد تمسك مدة زمنية طويلة بـ "ابن الجهم" وقربه إليه، وجعله من خاصته، ولإدراكه كذلك أن طائفة الشعراء، وعلى رأسهم "ابن الجهم" صفيه ونديمة، والكُتاب، وكل من على شاكلتهم ممن يؤثرون في الوجدان الجماعي، ويشيدون

(١) بدائع السلك في طبائع الملك لأبى عبد الله بن الأزرق ،ص ٣١طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧م – سلسلة التراث.

الرأى في الأمة، هم "نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، كما أنهم الألسنة الناطقة عن الملوك، وخزائن أموالهم وأمناؤهم على رعيتم وبلادهم [١]."

الأمر الثاني:بيان منزلة بنى العباس المكانية:

وبها ختم "ابن الجهم" قصيدته الماتعة "الرصافية"، فبعد أن تحدث عن وجاهة ملك "المتوكل" وعطاء الله له، وأفصح عن منزلة بني العباس المعنوية التي أسلفنا القول فيها، شرع في بيان مساكنهم وشرف أماكنهم فقال مفصلاً ذلك :

ومن كان مجهول المكان فإنما ... منازلكم بين الحجون إلى الحجر
ومازال بيت الله بين بيوتكم ... تذبون عنه بالمهندة البتر
أبو نضلة عمرو العلا وهو هاشم ... أبوكم وهل في الناس أشرف من عمرو
وساقي الحجيج شيبة الحمد بعده ... أبو الحارث المبقي لكم غاية الفخر
سقيتم وأطعمتم ومازال فضلكم ... على غيركم فضل الوفاء على الغدر
وجوه بني العباس للملك زينة ... كما زينت الأفلاك بالأنجم الزهر
ولا يستهل الملك إلا بأهله ... وهل ترجع الأيام إلا إلى الشهر
وما ظهر الإسلام إلا وجاركم ... بني هاشم بين المجرة والنسر
فحيوا بني العباس فيها تحية ... تسير على الأيام طيبة النشر
إذا أُنشدت زادت وليك غبطة ... وكانت لأهل الزيغ قاصمة الظهر(٢)

وهي عشرة أبيات استعرض خلالها "ابن الجهم" مواقع وأماكن أصحاب الملك من "بني العباس" الذين شرفهم الله . سبحانه . وقدر منازلهم، فجعلها تتخام البيت الحرام، وتتضمنها ساحته المباركة، فمنازلهم تقع بين الحجون والحجر.

(١) ينظر كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله الجهشيارى ص ٤ المقدمة – حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، إبراهيم الإبيارى ، عبد الحفيظ شلبى – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة الزخائر ٢٠٠٤ م

(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٦والأبيات هذه ختام "الرصافية".

ويوضح "ابن الجهم" هذه المنقبة المكانية التي تعادل وتفاخر منقبة الخلافة والولاية، وذلك عندما ذكر بأن البيت العتيق يتوسط بيوت "آل العباس" أو يقع منها موقع الدرة الفريدة في العقد النفيس "ومازال بيت الله بين بيوتكم" وهم يعرفون لهذا البيت فضله ومنزلته وشرف أرومته، وجلال تاريخه ؛ ومن ثَمَّ فهم له سدنة وخدم وحماة يذبون عنه بسيوفهم الهندية القاطعة وكلهم فخر ومجد تليد.

ولقد أخذ "ابن الجهم" ـ في حنكة وذكاء ـ يعدد بعضا من رؤوس "بني هاشم"، وهم قلة المجد وغاية الفخار، بانتسابهم المباشر إلى خدمة البيت الحرام، وهل في الناس كلهم أشرف منهم منزلة وأحسن قدرا ؛ لأن الله شرفهم بسقاية الحجاج وإطعامهم، وخلد ذلك في كتابه العزيز ؛ ولذلك أعطى الشاعر لهذه الخاصية قدرها، وبوأها مكانتها، وأبرز شرفها بهذا الخطاب المتباذخ الشامخ، ثم بهذا التشبيه الذي أوضح المراد، وأعلن تميزهم وتفردهم في قوله يخاطبهم في شخص المتوكل:

سـقيتم وأطعمـتم ومـازال فـضلكم على غيركم فضل الوفاء على الغدر

"ولله دَرّ" هذا الشاعر، وما أقدره على إدراك لطيف المعاني بهذه السلاسة اللغوية المنسابة، وكأنه قد غمس بيانه في نهر من العسل عندما قال: "سقيتم وأطعمتم" وفيهما الكفاية التي تستحق الإشادة، وتجلب الريادة، غير أنه قصد أن يَلفهم بالمجد، ويطوقهم بالفخار فأتى بـ "مازال" التي تدل على الديمومة والاستشراف الممتد في المستقبل البعيد: "... ومازال فضلكم"، فضل ماذا؟ "فضل الوفاء على الغدر"، وأي فضل بعد هذا التشبيه، وأي حلاوة وجلاوة بعد هذه المعاني الدقيقة المأخذ البعيدة المغزى "الوفاء والغدر"، فكم خسّة تظهر، وكم مذلة وحقارة واستخذاء ينكشف لهذه الصفة البغيضة "الغدر"، التي تدب في قنافذ ليلها الخادع البهيم . والتي ربما تأبّى أن يتصف بها الحيوان الأعجمي . إذا ما قُورنت أو قُوبلت بصفة "الوفاء" بياضا وجلاء وأريحية وصفاء، وإنسانية مطلقة رحيبة وممتدة امتداد اللفظة ذاتها، بألفها المنطلقة السامقة في عنان السماء

"وفاااء"، وفائها الهامسة بضعفها، وجريان النَّفَس معها، في مقابلة "غدْر" بغينها الحلقية الجهرية القوية المستعلية المفخمة، وسكونها الذي يتوسط حروفها الثلاثة في انطباق وإغلاق يجسد في نطقه ورسمه الصفة ذاتها، بفجاعتها، وفجاءتها، ومباغتتها، واندفاعها، فلربما دلت المباني على المعاني، وجسد منطوق الكلمات مدلول العبارات، وأي علاقة تربط الوفاء بالغدر؟، وأي نفس تجمعهما في قِرَنٍ واحد؟، اللهم إلا لغرض التفرقة بينهما، وإظهار البون الشاسع بين ظلالهما وما يبثانه في النفس والقلب من معان متباينة. وبضدها تتميز الأشياء.

ولقد ساعد "بحر الطويل" بإيقاعاته الهادئة، وموسيقاه الرتيبة، وطبيعته المتأنية، وتفاعيله الممتدة المرسلة، على بث ما قصده الشاعر من معانيه العالية سالفة الذكر، وتصوير فضل "بني العباس" . حسب رؤيته . بصدقه الفني والواقعي معا، وحبه "للمتوكل"، الذي ملك عليه نفسه، حتى ما ترك الشاعر فيه فضلا لأحد على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف(١).

وما زال "ابن الجهم" يركب صهوة التشبيه ليجسد معانيه وصوره، ويبين مراميه، قائلا في إشادة بالغة:

وجوه بني العباس للملك زينة كما زينت الأفلاك بالأنجم الزهر
ولا يستهل الملك إلا بأهله وهل ترجع الأيام إلا إلى الشهر
وما ظهر الإسلام إلا وجاركم بني هاشم بين المجرة والنَّسْر

وتعجبني مواقع المدح عند "ابن الجهم"، فقد جعل فضل "بني العباس" ـ من قبل . على الناس عاليا، وشرفهم سامقا، كفضل الوفاء على الغدر، وهذه من الأمور المعنوية المستحسنة في أبواب المديح، إذا ما مُدِحَتْ السجايا والخصال.

ولما أن أراد مدح "الوجوه" ؛ باعتبار أنها دليل المرء وشرفه، وفيها وسائل التمايز، وعلامات النجابة، وغايات الثناء، وهي جزء يطلق ويراد به

(١) تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي" د/شوقي ضيف ، ص ٢٦٣.

الذات نفسها، آثر الحسية،، ولذا فقد جعلها للملك سراجا، وللخلافة بهجة وزينة، وإن زينتهم الملك لمن نوع خاص، وحالة تشبه في تميزها وتفردها الأنجم الزاهرة، والكواكب الباهرة التي تزين الأفلاك في غسق الدجى، ودياجير الظلام.

أرأيت كيف يوظف "ابن الجهم" صوره، وكيف يستغل مواقعها، ومتى يختار لها المعنوي أو الحسي، في ثقة تشهد له بالتفرد والتنوع، والطبع وعدم التكلف.

وقد يعمد "ابن الجهم" إلى إخفاء صورته، وإلباسها ثوبا من الفكر والروية قصدا، فكلما دقَّت الصورة، ولطفت، كلما كان موقعها في النفس أرسخ، والوصول إليها بعد كد يجعلها كمن يقبض على اللؤلؤ بعد رحلة شاقة من الغوص في أعماق المحيطات، وذلك يتضح في قوله:

ولا يستهل الملك إلا بأهله وهل ترجع الأيام إلا إلي الشهر

فقد عقد في البيت مقارنة لطيفة بين تصوير "بني العباس" وجوها للمُلْك، يستهل الملك بهم، فهم أهله يُرْجع إليهم في شؤونه، وتعقد على ألويتهم رآياته، ويعرف بهم مجده. وربَط هذه الصورة اللطيفة التي جاء بها تتوارى وراء أسلوب الغائب في الشطر الأول، لونا من ألوان التدلل، ومزيدا من الثقة، وكأنه قد ضمن لهم أنهم متفردون بأحقية الملك وأهليته ؛ ولذا فليس ينازعهم فيه أحد، ومن ثمّ فلا حرج عليه أن يتجه بالأسلوب إلى حيث قلنا.

أقول: لقد ربط هذه الصورة في الشطر الأول بصورة اكتنفها "التشبيه الضمني" في الشطر الثاني، الذي تستتر أركانه ولا تظهر إلا من فحوى المعنى الكلي المُتصيَّد من سياقات الكلام، فالأيام مَرَدها إلى الشهر، تُعرف به، وينعقد مجموعها فيه، ويجمع شتاتها تحت مسماه، وكأن "ابن الجهم" أراد أن يقول: كما أن الأيام لا يستدل عليها، ولا ينتظم سلكها إلا بدخولها في مسمى "شهر بعينه"، كذلك لا ينعقد نظام المُلْك ولا يستقيم أمره إلا بأهله والقائمين عليه، فأنتم أهله يا "بني العباس"، وأساطين قصوره وأعمدة خيامه، وأجنحة رفعته، وألوية نجدته،

ومن قوتكم هذه ظهر الإسلام على أعدائه، وعلا شأنه، وعَزَّ جاره حتى طال الأفلاك والمجرات.

ويختتم "علي بن الجهم" "الرصافية" بتحية عطرة أشاد فيها بـ "بني العباس" وأمر بها مَنْ حوله ومَنْ تكتنفهم رعايتهم، هذه التحية أراد الشاعر لها ورجا أن تسير على مدى العصور والدهور، طيبة النشر، زكية العطر، وكأنه قصد بهذه التحية العطرة قصيدته هذه التي معنا وقد أعدها تحية مطولة للخليفة "المتوكل"، ولمن أراد أن ينشر عبير فضله، أو يزكي أطايب عمله، كما أنها تحية فواحة:

إذا أنـــشدت زادت وليـــك غبطـــة وكانـت لأهـل الزيـغ قاصـمة الظهـر

فهي تجمع بين دفتيها بمعانيها، ومراميها، وألفاظها ومقاصدها، بين إسعاد صاحبها أو المخاطب بها، وبين قصم ظهور أهل الزيغ، وحفر قبور أهل الضلال والبهتان.

وهكذا نجح "ابن الجهم" في اختتام "رصافيته" بهذا التلطف الرائع، والخروج اللطيف، مثلما افتتحها في غزلة الذي بدأها به في أبيات طويلة، حتى دلف إلى مدح "المتوكل" فأشاد به، وأعلاه حتى أرضاه، ثم ختمها بهذا الدعاء والتحايا، التي وَدَّ أن تسير سير الرياح، طيبة النشر، فواحة العطر.

خاتمة البحث

الحمد لله رب العالمين، جعل لكل شيء أولاً وآخراً ولكل عمل بداية ونهاية، وتعالى عن كل هذا علواً كبيراً وصلاة وسلاماً على أفضل الرسل محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد... لقد طوفنا في هذا البحث حول "الرصافية " أشهر ما قاله " علي بن الجهم"، وحومنا حول أسرارها التعبيرية وجمالياتها الأسلوبية والفنية، فأمتعتنا دراستها وأعجبتنا عبارتها ودقيقُ معانيها، وآن لنا بعد هذه الرحلة الماتعة أن نسجل **أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة وهى تتمثل فيما يأتى:**

أولاً : دلت " الرصافية " على شاعرية "ابن الجهم" وقوة عارضته الشعرية وكعبه العالي في مجال القريض، وكأنه يمتح فيها من وادي عبقر الشعري، أو يُجري الجن على لسانه الإبداع.

ثانياً : الرصافية – باعتبار أنها أثر شعري له قيمته الأدبية – تدل بواقعها وخبرة صاحبها على الأثر الكبير الذي ينطبع على الشاعر من خلال بيئته وعيشته وكدر عيشه أو صفو مقامه، فهى برهان ملموس على التحول الكبير الذي أصاب "ابن الجهم": من بداوة تضرب في شظف نحو أطناب الخشونة والكزازة، إلى حضارة تأخذ بأيدينا وأسماعنا إلى نداوة في القول، وحلاوة في التعبير، وطلاوة في الألفاظ والمعاني، حتى ذاب صاحبها رقة، وشف وجداً وصبابة، بعد طبع خشن وبداوة جافية.

ثالثاً : ضرب "ابن الجهم" بسهم وافر في ساحة القول، فجمع في "الرصافية" بين "التقليد" المتمثل في افتتاحها بالغزل ورقيق الحديث وبين "التطور"

المتمثل في اللغة الشعرية القائمة على الحوار العالي الذي يفتق الخيال، ويوسع المدارك، ويبعث التشويق، ويثير الإبداع والإعجاب بين الشاعر والقارئ، وبين المبدع والمتلقي.

رابعا: كشفت الدراسة عن خيط رفيع وصلة لطيفة بين غزل "ابن الجهم" الذي تصدر " الرصافية " وبين مدح المتوكل، وكأنه أراد أن يستميل القلوب إليه، ويثير الانتباه نحو مطلبه، بما أحدثه من " المعادل الموضوعي " الذي عكس قضيته وعاطفته نحو "المتوكل"، وصلاً يشبه وصل المحبين بما يتضمنه من سعادة ورغد عيش، وقطيعة كقطيعتهم بما تشمله من عذاب وهوان ونكد وضيق.

خامساً : ركزت الدراسة على إبراز خصال "ابن الجهم "والتي كان يتمتع بها، وأشار إلى بعضها في "الرصافية"من مثل العزة، والبعد عن النقائص، والترفع وغيرها، وذلك من خلال استعراض بعض المعاني التي التقى فيها مع بعض الشعراء كالمتنبي وغيره، ومحاولة الدراسة عرض الموازنات بين هذه المعاني المتقاربة الدلالة، وكشف الجوانب المختلفة بينها.

سادساً : أكدت "الرصافية"، وكشفت عن الروح الدينية العالية، والثقافة الإسلامية الواسعة التي تمتع بها "ابن الجهم "، وقد وظفها باقتدار في أشعاره من غير تصنع أو تكلف، ولكن بطبع وسليقة وعفوية وموهبة تنم عن شاعريته وتمكنه فى مجال القول والإبداع.

سابعاً : أوضحت "الرصافية" – بأسلوبها وحوارها وألفاظها ومعانيها . عن روح التأثر والتأثير والتفاعل الشعري بين صاحبها وأعلام من شعراء العصر العباسي وغيره من أمثال: "أبى فراس الحمداني – أبى الطيب المتنبي –

أبى نواس – البحتري"، وغيرهم، كما أوضحت تأثر "ابن الجهم" الواضح بفتى الحجاز في الغزل "عمر بن أبى ربيعة" صاحب باكورة الحوار الشعري، أو الغزل القصصي في عصره، وإن كان واضع بذرة هذا الفن هو "امرؤ القيس بن حجر الكندي " رأس الطبقة الأولى في العصر الجاهلي.

ثامناً : خلصت الدراسة إلى أن القصيدة "الرصافية" قيمة أدبية وفنية سامقة، قل نظيرها، كما أنها كانت ولا تزال درة فريدة، وغادة رقيقة تأتلق في ساحة الأدب العربي بثوب قشيب وملاءة مزدانة ما قُصَّدَ القصيدُ أو أُنشْدَ القريض.

فهرس المصادر والمراجع

* أبونواس الحسن بن هاني دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي – عباس محمود العقاد – الناشر مطبعة الرسالة.
* أخبار أبى تمام لأبي بكر محمد بن يحي الصولى – تحقيق محمد عبده عزام وآخرون – طبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة
* أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى – تحقيق محمد فاضل – المكتبة العصرية – صيدا بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠١م
* أسس النقد الأدبي عند العرب – الدكتور أحمد أحمد بدوى – الطبعة الأولى ١٩٥٨م
* الأعلام – لخير الدين الزركلي – طبعة دار العلم للملايين – الحادية عشرة – بيروت ١٩٩٥م.
* الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني – شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد على مهنا – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩٢م
* الإبانة عن سرقات المتنبي – تأليف أبى سعيد محمد بن أحمد العميدى – طبعة دار المعارف بمصر.
* ابن رشيق ونقد الشعر دراسة تحليلية نقدية تاريخية مقارنة – الدكتور عبد الرؤف مخلوف – الطبعة الأولى ١٩٧٣م- الناشر وكالة المطبوعات بالكويت.
* البحث الأدبي – طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره – دكتور/ شوقى ضيف – طبعة دار المعارف – الطبعة الخامسة.
* بدائع السلك في طبائع الملك – لأبى عبد الله بن الأزرق – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧م- سلسة التراث.
* البيان والتبيين للجاحظ – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – تقديم عبد الحكيم راضى – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة.

* تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي" الدكتور شوقي ضيف – طبعة دار المعارف – الطبعة السابعة
* تاريخ النقد الأدبي عند العرب – دكتور/ إحسان عباس – طبعة دار الثقافة – بيروت لبنان – الطبعة الرابعة
* التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان د/ محمد محمد أبو موسى – الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م– مكتبة وهبة بالقاهرة.
* جماليات النص الأدبى في التراث العربي د/ صابر عبد الدايم – طبعة دار الكتاب الحديث ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م بالقاهرة.
* الجنى الداني في حروف المعانى للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق د/ فخر الدين قباوة– الأستاذ محمد نديم فاضل – طبعه دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م
* الحكمة في شعر المتنبي – دكتور يسري محمد سلامة – طبعة دار المعارف ١٩٨٢م.
* حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة العدد الخامس عشر– طبعة دار الهدى للطباعة والنشر ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
* دراسات في الأدب العربي والتاريخ – محمد عبد الغنى حسن – الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة.
* ديوان أبى فراس الحمداني – رواية أبى عبد الله الحسين بن خالويه – طبعة دار بيروت للطباعة والنشر – الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
* ديوان الأعشى – طبعة دار صادر بيروت
* ديوان ابن زيدون – دراسة وتهذيب عبد الله سنده – طبعة دار المعارف – بيروت لبنان الثانية ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
* ديوان الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي جمع ودراسة د/ صابر عبد الدايم – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – الأولي ٢٠٠٩م.
* ديوان امرئ القيس – طبعة دار صادر.
* ديوان البحتري – تحقيق حسن كامل الصيرفي – طبعة دار المعارف – الثانية ١٩٧٢م
* ديوان الشريف الرضي– طبعة دار صادر بيروت.

* ديوان علي بن الجهم – تحقيق خليل مردم بك رئيس مجمع اللغة العربية سابقاً – طبعة دار صادر بيروت لبنان – الثالثة ٢٠١٠م
* ديوان عمر بن أبى ربيعة – طبعة دار بيروت للطباعة والنشر – طبعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
* ديوان مجنون ليلى – شرح عدنان زكى درويش – طبعة دار صادر بيروت – الثالثة ٢٠٠٩م.
* الزاهر في معاني كلمات الناس لأبى القاسم محمد بن القاسم الأنباري – تحقيق حاتم صالح الضامن – طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت – الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
* زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني – ضبطه وشرحة الدكتور/ يوسف علي الطويل – طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م – منشورات محمد علي بيضون
* سمط اللآلئ – للوزير أبى عبيد العكبري صححه وحققه – عبد العزيز الميمني . طبعة ٢٠٠٩م – سلسلة الذخائر.
* شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك – تأليف ابن الناظم – تحقيق محمد باسل عيون السود – طبعة دار الكتب العلمية – الأولى ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م منشورات محمد على بيضون.
* شرح ديوان أبى نواس – طبعة دار الكتاب اللبنانى – منشورات الشركة العالمية للكتاب عام ١٩٨٧– ضبط وشرح إيليا الحاوي.
* شرح ديوان المتنبي – صنعه عبد الرحمن البرقوقي – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م – منشورات محمد علي بيضون.
* شرح المعلقات السبع للزوزنى – منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت لبنان.
* الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء د/ محمد محمد أبو موسى – الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م مكتبة وهبة بالقاهرة.
* الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري حققه وضبط نصه مفيد قميحة – محمد الضناوي – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الأولى ١٤٢١هـ.

* صحيح البخاري – لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
* صناجة العرب الأعشى الكبير – دكتور مصطفى الجوزو – الطبعة الأولى ١٩٧٧م – دار الطليعة بيروت
* الطبيعة في الشعر الجاهلي – الدكتور نورى حمودى القيسي – الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م– مكتبة النهضة العربية – عالم الكتب.
* طوق الحمامة في الإلفة والإلاف للإمام ابن حزم الأندلسي – ضبطه وحرر حواشيه الدكتور الطاهر مكي – الطبعة الثالثة – دار المعارف ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
* طيف الخيال للشريف المرتضى – تحقيق حسن كامل الصيرفي – تقديم الدكتور حسن البنا عز الدين – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٨م
* العباس بن الأحنف دراسة مقارنة – دكتورة/ ليلى حسن سعد الدين – الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م – منشورات مؤسسة الخافقين بدمشق
* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – طبعة دار الجيل – بيروت لبنان – الخامسة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
* عيار الشعر لابن طباطبا العلوي – تحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع – طبعة دار العلوم بالرياض ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
* عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري – تقديم الدكتور عبد الحكيم راضي – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م.
* الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر ١٨٥٠م – ١٩٦٧م دكتور سعد دعبيس – الطبعة الثانية ١٩٧٩م – طبعة دار النهضة بالقاهرة.
* الفاخر لأبى طالب المفضل بن سلمة بن عاصم – تحقيق عبد العليم الطحاوي – محمد علي النجار – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م

* الفروسية للإمام ابن القيم الجوزية – عرفه وترجم للمؤلف السيد عزت العطار – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان.
* قصص العشاق النثرية في العصر الأموي – دكتور/ عبد الحميد إبراهيم – الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
* كتاب الوزراء والكتاب – لأبي عبد الله الجهشياري – حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري – عبد الحفيظ شلبي – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة الذخائر ٢٠٠٤م
* لسان العرب لابن منظور – طبعة دار المعارف توزيع دار عمار بالقاهرة.
* مجمع الأمثال للميداني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
* مدامع العشاق – الدكتور/ زكي مبارك – طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – الطبعة الثانية ٢٠٠٦م – سلسلة ذاكرة الكتابة.
* مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي – تحقيق – مصطفى السيد بن أبي ليلى – طبعة المكتبة التوفيقية بالقاهرة.
* معجم البلدان لياقوت الحموي – تحقيق فريد عبد العزيز الجندي– طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الأولى ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م.
* معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – الدكتور أحمد مطلوب – الطبعة الثانية ١٩٩٣م – مكتبة لبنان – بيروت.
* نقد الشعر لقدامة بن جعفر – تحقيق كمال مصطفى/ القاهرة ١٩٦٣م.
* النقدية العربية من الأصمعي إلى ابن خلدون دراسة في معايير نقد الشعر عند العرب – دكتور قيس كاظم الجنابي – الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م الناشر – مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥٦٩
التمهيد: وعنوانه "ملامح من حياة "علي بن الجهم" صاحب الرصافية	٥٧٣
أولا: التعريف به.....	٥٧٤
ثانيا: مولده وأسرته.....	٥٧٤
ثالثا: أدبه ونبوغه	٥٧٥
رابعا: شعره	٥٧٦
خامسا: وفاته	٥٧٧
الفصل الأول: وعنوانه القيم التعبيرية والفنية في الجانب الغزلي من القصيدة الرصافية	٥٧٨
الفصل الثاني: وعنوانه القيم التعبيرية والفنية في حسن التخلص وروعة التسلل من الغزل إلي المدح في القصيدة الرصافية	٦٢١
الفصل الثالث: وعنوانه القيم التعبيرية والفنية في مدح "المتوكل"من القصيدة الرصافية	٦٣٣
الخاتمة	٦٥٧
فهرس المصادر والمراجع	٦٦٠
فهرس الموضوعات.....	٦٦٥